٥

كتاب التحرير السياسي

آسيا المعاصرة

أصداء الثورة

الجزء الرابع

تأليف

البروفسور رومين

ترجمة

نجيب سوس

٥

كتاب التحرير

السياسى

آسيا المعاصرة

أصداء الثورة

تأليف

البروفسور رومين

ترجمة

نجيب سوس

4

سلسلة كتاب التحرير السياسى

تصدر عن دار التحرير
للطبع والنشر

اشراف وتقديم
عبد العزيز فهمى

رئيس مجلس الادارة
كمال الحناوى

تصميم الغلاف بريشة
الفنان حسن فؤاد



الرئيس جمال عبد الناصر

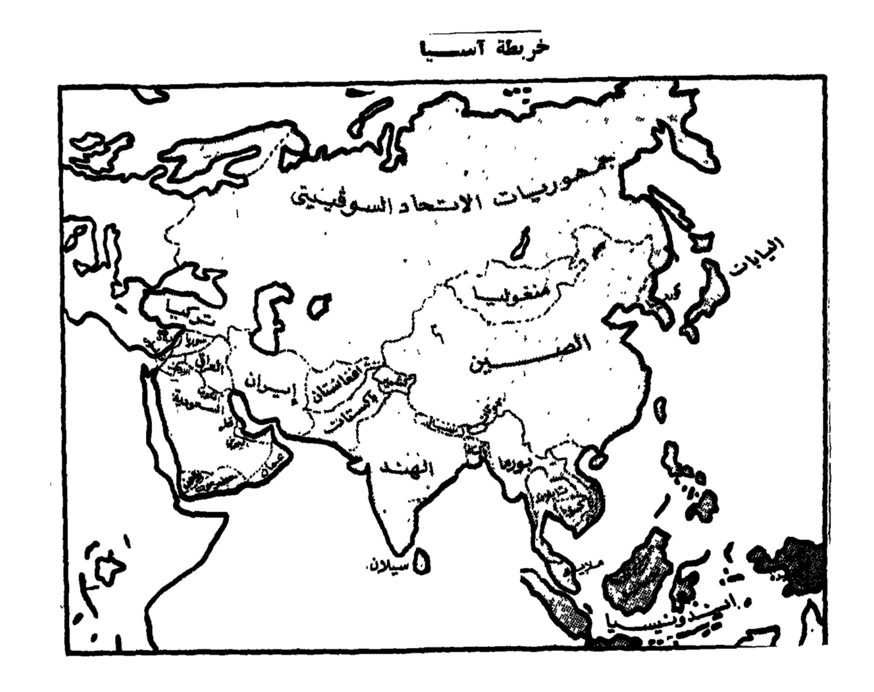
ان الاستعمار اكتشف ان القوة العسكرية تزيد ثورات الشعوب اشتعالا ، ومن ثم انتقل من السلب الى الحديعه وقدم تنازلات شكليه لم تلبث القيادات الثورية أن خلطت بينها وبين الجوهر الحقيقي ، وكان منطق الأوضاع الطبقية يزين لها هذا الخلط ..

ان الاستعمار فى هذه الفترة أعطى من الاستقلال اسمه ، وسلب مضمونه .

« الميثاق الوطنى - ٢١ مايو سنة ١٩٦٢ »

فهرس الكتاب

خريطة آسيا


جمهوريات الاتحاد السوفييتي
اليابان
منغوليا
الصين
تركيا
العراق
إيران
أفغانستان
باكستان
الهند
بورما
سيلان
عمان
ملايو
إندونيسيا

تقـديم

بقـلم

عبد العزيز فهمى

كانت الفترة مابين الحربين العالميتين الاولى والثانية مليئة بحروب جانبيـة وثورات وطنية واجتماعية فى عدة مناطق ، وكانت الثورة الاشتراكية فى روسـيا القيصرية وما صاحبها من حرب التدخل الاستعمارى ، اهم الأحداث التى وقعت فى تلك الفترة لا لشىء سوى انها كانت ضربة موجهة الى أساس النظام الاستعمارى والامبراطورى .

ولكن هذه الثورة صاحبتها وتأثرت بها ثورات اخرى لها اهميتها الكبـرى فى التاريخ المعاصر .

وقد اوضح الاستاذ رومين فى كتاب « الفعل ورد الفعل » جوانب الثـورة العربية فى مختلف بلدان الوطن العربى : مصر وسوريا ولبنان والعراق وفلسطين وغيرها وجوانب الثورات الاخرى فى تركيا وايران وافغانستان .

وفى هـذا الجـزء يلقى المؤرخ الكبير اضواء ساطعة على ثورتين من كبريات الثورات الوطنية والاجتماعية فى هذا العصر ، ونعنى بهما ثورة الصين وثورة الهند اللتين كان لهما ولا يزال اصداؤهما وآثارهما فى حركة المد الثورى التى شملت القارة الاسيوية بجميع بلدانها وغيرها من القارات التى ابتليت بنظم الاستغلال والاستعمار .

عبد العزيز فهمى

١

الصين

لم تحقق الصين فى ثورة ١٩١١ ما حققته البورجوازية الفرنسية فى تورتى عام ١٧١٨ وعـام ١٨٣٠ اذ كانت اضعف منها ، فان البورجوازيين فى باريس وغيرها من المدن الفرنسية حطموا الملكية المطلقة التى كانت قائمة فى القرن الثامن عشر وأقاموا بدلا منها حكمهم الخاص فى عصر الآلة الذى ظهر فى القرن التاسع عشر • لقد أحرق الفلاحون الفرنسيون قصور سادتهم ، وقسموا أرضـهم وحاربوا فى جيوش الثورة دفاعا عن الثـورة ونشروا أفكارها فى أوربا • أما الفلاحون والعمال الصينيون فلم يكن لهم فى واقع الأمر دور فى أحداث سنة ١٩١١ • ونعم لقد أقصى بوى امبراطور مانشو الضعيف عن عرشه ، ولكن لم يتغير شىء آخر كثيرا ، فبعـد ، ٣ اغسطس سنة ١٩١٢ ، استمر حزب صن المعروف باسم تونجمنج هوى ، وهو طليعة الثورة ، فى العمل • تحت اسم كومنتـانج kuo min tang وهو حزب شبه قانونى للتجار البورجوازيين فى الصين والخارج • ولكنه كان يضم كذلك بعض المسئولين وغيرهم من المثقفين • وفى الواقع ، ظل حكام الأقاليم فى عملهم كما استمر سادة الحرب المكروهون وغيرهم من قطاع الطرق « غير الرسميين » والرعاع والأوباش • لقد تغيرت الحكومة فى المظهر لا غير ولكن لم يكن لها فى الحقيقة أى سلطة وراء جدران بكين ولم تكن فى الواقع تزيد عن ناطق بلسان الاستعماريين اليابانيين والغـربيين • وفى وسط الفوضى التى سادت البـلاد داخليا والاختنـاق الذى عم البلاد بسبب الضغط الاقتصادى الأجنبى ، ضاعت الصين هباء

هباء • غير أن ثلاثة عوامل سببت تغييرا فى الموقف حوالى سنة ١٩١٩ : الاستعمار ، ونمو حركات العمال والفلاحين الوطنيين ، والثورة الروسية • لقد ارغمت هذه العوامل الكومنتانج على أن يتجه الى اليسار ، الى العمال والفلاحين • وفيما بين سنتى ١٩٢٤ و ١٩٢٧ جعلته مركزا لثانى ثورة كبرى تعارض الحكومة المركزية فى بكين والامبريالية •

وفيما يتعلق بالعامل الأول : تجاهلت الدول الغربية واليابان فى فرساى مطالب الصين العادله • ونذكر على سبيل المثال أن اليابان تسلمت الامتيازات الألمانية السابقة فى شانتونج واحتفظت بجيشها فى منشوريا • وكان ذلك حبه مرة المذاق اضطر صن الكومنتانج الى ابتلاعها ، فهو حالة من الحالات التى تدعو الى الاهتمام وصفها بعض الكتاب الماركسيين بأنها « العمل الايجابى الثورى للاستعمار » • لقد كانت البورجوازية الصينية تنتظر الكثير من الغرب ولكن فئة قليلة من المثقفين المنتمين الى الجناح اليسارى هم وحدهم الذين حذروا خلال الحرب مما قد يحدث • ومن بينهم على سبيل المثال الكاتب الماركسى البروفسور شن تو شو الأستاذ بجامعة بكين الذى كتب تحذيره فى مجلته « ويكلى رفيو » (١٩١٨) ولقد كان مركز شن بالنسبة للماركسية الصينية يقابل مركز بليخانوف بالنسبة للماركسية الروسية •

وكان العامل الثانى فى اتجاه الكومنتانج الى اليسار هو نمو حركة العمال والفلاحين ، لم تكن ثورة الفلاحين حدثا جديدا فى الصين ولكن حركات المقاومة بين العمال كانت شيئا جديدا ، ويرجع تاريخها الى سنة ١٩١٩ ، وأشهر هذه الحركات هى الاضراب الدامى الذى قام به عمال السكك الحديدية الذين يعملون على خط بكين ـ هانكاو (١٩٢٠) ، والاضراب العام للبحارة الصينيين والعمال فى هونج كونج البريطانية (١٩٢٢) • وكان للحركة الثورية النامية

بين الطلبة وغيرهم من المثقفين أثر مماثل . ففي سنة ١٩١٨ أنشئت بجامعة بكين جمعية لدراسة المبادىء الماركسية . وفى سنة ١٩٢٠ ترجم وانج تاو البيان الشيوعى الذى وضعه ماركس وانجلز ، الى اللغة الصينية فكان أول مؤلف كلاسيكى من المؤلفات الماركسية ظهر باللغة الوطنية . وفى السنة نفسها شكل الحزب الشيوعى الصينى ، المعروف باسم كوان شان تانج ، فى بكين وكان زعماؤه من سنة ١٩٢١ حتى سنة ١٩٢٧ شن تو شكو (١٨٧٩ - ١٩٤٢) ودكتور لى تا - شاو أمين مكتبة جامعة بكين . وفى الوقت نفسه انشئت فروع له فى الخارج حيث كان يعيش عدد كبير من الصينيين ولا سيما فى فرنسا وألمانيا حيث شغل شواين لاى وشوتيه مراكز فى هذه الفروع ، وفى موسكو وطوكيو . والقى البورجوازيون المياسرون عن كاهلهم قيود التقاليد . وفى تلك السنوات هوجمت الكونفوشيوسية من جهات كثيرة وحلت محلها المبادىء العملية والمادية .

وكان العامل الثالث هو الثورة الروسية التى نشأ عنها الاتحاد السوفييتى .

لقد قرأ صن هذه العلامات المكتوبة على الحائط وفهمها فهما جزئيا على الأقل . وفى مقابل آرائه التى كان يعتنقها فى سنة ١٩١١ ، صار حينئذ يتجه أكثر وأكثر الى التفكير فى الفلاحين والعمال باعتبارهم عنصرا هاما ، بل وربما كانوا حرس الطليعة للثورة على أوضاع القرون الوسطى التى كانت تعيش فيها الصين ، وان كان هو نفسه ، كما قرر فى كثير من الحالات ليس شيوعيا .

وفى أبريل سنة ١٩٢٠ شكل صن فى كانتون حكومة الكومنتانج فى مواجهة حكومة بكين ، وكانت هذه الحكومة أبعد ما تكون عن الأمن اذ كانت السفن الحربية الأجنبية تهدد الميناء ، وكان الرجعيون يتآمرون ضد « كانتون الحمراء » . وكانت الضربة

المفاجئة التى وجهتها الأحزاب اليمينية ، مما ارغم صن وزوجته على مغادرة كانتون بعض الوقت • واختفى صن مدة ١٥ يوما فى السفينة الحربية الوحيدة التى كانت تملكها الحكومة الثورية وهى سفينة (جونج فينــج) ثم هــرب بعد ذلك الى شنغهاى • وعندئذ دمــر بيته وأحرق كثير من المخطوطات الهامة بما فيها دراســـاته التى اجراها للمشكلات الاقتصادية فى الصين الجديدة ، وقد كانت حتى تلك الايام ، وثائق تاريخية •

وفى شنغهاى اتصل صن بكل من جوف وكاراخان ممثــلى روسيا لدى بكين ، وهكذا نشأ وفاق الكومنتانج والبلاشفة الذى استمر حتى سنة ١٩٢٧ • ولقد كان الاتحاد السوفييتى هو البلد الوحيد المستعد لمساعدة الثورة البورجوازية الصينية على البقاء • وعاد صن أدراجه الى كانتون ، وفى صيف سنة ١٩٢٣ وصل عدد من ممثلى الحكومة الروسية والشيوعية الدولية الى هناك ، من بينهم م•م• بورودين الذى كان يعمل من قبل مستشارا للحكومة الثورية فى تركيا ، ومانا بندرانات روى وهو ثائر مشهور من الهند • وقام صن بناء على نصائحهم ، وبرغم الكثير من التهديدات الدوليــة والمظاهرات البحرية ، بتحويل الكومنتانج الى حزب ثورى حقيقى على الطراز الروسى • وفى أول مؤتمر صينى خالص (٢٠ ـ ٣٠ يناير ١٩٢٤) سمح للشيوعيين بالانضمام الى الكومنتانج بينما ظل الحزب الشيوعى محتفظا بكيانه كحزب • وكان معنى هذا زيادة الاتجاه الى اليسار • ولكن القطاع الأقل ثورية فى الكومنتانج عام برد الفعل على الفور • فلم يكد يحل شهر سبتمبر حتى ذهب عدد من زعمائهم الى شنغهاى ، قلعة البورجوازية ، وشكلوا هناك كومنتانج (أبيض) لمعارضة الحزب (الاحمر) فى كانتون •

وأثناء ذلك الوقت ، كان البلاشفة قد ارسلوا بنادق ومواد حربية أخرى ، كما أوفدوا عددا من كبار الضباط ، بينهم الجنرال

بلوشر • وكان الجيش الثورى يقوم بتدريباته الفنيه فى آكاديميه وامبوا العسكرية بكانتون (مايو ١٩٢٤) وكان المدير الرسمى لهذه الأكاديمية هو شيانج كاى شيك (الذى ولد فى سنة ١٨٨٧) رئيس أركان حرب صن وكان قد عاد لتوه بعد قضاء فترة دراسية فى أكاديمية الجيش الأحمر بموسكو • أما مديرها الحقيقى فكان بلوشر • وكان شو اين لاى (المولود سنة ١٨٩٨) سكرتيرا للأكاديمية ، وهو الآن رئيس وزراء الصين الشعبية كما كان لفترة طويلة وزيرا للخارجية أيضا وكان القائد السياسى للاكاديمية الراديكالى اليسارى ليا شونج هاى الذى يعتبر (مارا) الثورة الصينية •

حاول صن أن يغرى بكين بأن تعترف بحكومة كانتون باعتبارها الحكومة الرسمية للجمهورية • ووقعت الكارثة أثناء احدى زياراته الدبلوماسية للشمال ، ففى صباح أحد أيام الشتاء الباردة (١٢ مارس ١٩٢٥) مات الزعيم الثورى العظيم فى المستشفى من سرطان فى الكبد ، وبذلك كان اليوم الثانى عشر من مارس يوما عصيبا بالنسبة للثورة الصينية كما كان يوم ٢١ يناير ١٩٢٤ ، عندما مات لنين ، يوما عصيبا بالنسبة للثورة الروسية •

وربما كان التهديد الاستعمارى والحملة العسكرية التى أرسلت الى الشمال ــ والتى سنتحدث بالمزيد من تفاصيلها فيما بعد ــ هما السبب الوحيد الذى حال دون وقوع انقسامات أخرى فى الكومنتانج بين سنتى ١٩٢٥ و ١٩٢٧ • ولقد كان الرؤساء الحقيقيون لحكومة كانتونج فى سنة ١٩٢٤ الى جانب بورودين ، هم : من الجناح اليسارى ، وانج شنج وى (والمعروف أيضا باسم وانج شاو منج ، وهو الكاتب الحقيقى لبيانات صن اذ كان رئيس اللجنة التنفيذية للحكومة • ومن اليمين هو هان مين • وظل الرجلان كلاهما من أبرز رجال الحزب طيلة ٢٥ سنة •

وهناك عاملان آخران ساعدا على نمو الحركة الثورية ، ودفعها الى الوقوف ضد الامبريالية الأجنبية ، وقد ساعدا شيئا فشيئا ، على جعل الجناح اليمينى فى المدن الساحلية معاديا « لقلعـــة كانتون الحمراء » • ففى ٣٠ مايو سنة ١٩٢٥ ، تظاهر العمال والطلبـــة الصينيون أمام مركز الشرطة البريطانى فى الحى الدولى بشنغهاى حيث كان بعض زعماء الاضراب من عمال مصـــانع نسيج القطن اليابانيةقد أودعوا السجن• وتلقى الجنود البريطانيونالأمر باطلاق النار • وسرعان ما وصف الحادث بأنه « حمام دم شـــنغهاى » • وكانت النتيجهاضرابا عاما فى المدينة وحصارا اقتصاديا لمستعمرات الجاليات الدولية • ولم يستطع الجنــود الصينيون والبريطانيون واليابانيون أن يحطموا الاضراب والمقاطعة حتى شهر آكتوبر وانتشرت قصة احداث شنغهاى كالنار الضارية فى البلاد وأثارتالاحتجاجات فى جميع الموانى • وفى كانتون ، أطلق بحـــارة السفينة البحرية البريطانية « تارانتولا » والبحارة الفرنسيون النار على جمهور عمال الميناء والطلبة المتظاهرين (٢٣ يونيو ١٩٢٥) ، واستمر الاضراب العام للعمال الصينيين فى أرصفة الميناء ومصانع هونج كونج ، ومقاطعة المستعمرة ، ٤٥٠ يوما وهو رقم قياسى تاريخى • واستمر الحصار البريطانى لكانتون « التى كانت توصف بأنها معمل تفريخ الثورة » فترة مماثلة • وكان معظم العمال والطلبة المضربين فى هونج كونج يذهبون خلال الصيف الى كانتون المجاورة ويعملون كما تعمل الخميرة فى وسط الطبقة العاملة سواء فى المدينة عموما وفى اقليم كوانتونج •

ولقد ظهر فى ٩ أغسطس سنة ١٩٢٥ الأسلوب الذى يعمل به الجناح اليمينى الذى يتزعمه هو هان مين فى كانتـون ذاتهـــا ، والكومنتانج «الأبيض» فى شنغهاى للدفاع عن انفسهما ، باغتيال لياو شونج هاى الراديكالى ، غير الشيوعى ، وكان وزيرا للمالية والزراعة ، والقائد السياسى لأكاديمية وامبوا والرجل الثانى بعد

وانج شنج وى ، بين الزعماء اليساريين • وظهر هذا الأسلوب أيضا فى الانقلاب الذى قام به شيانج كاى شيك وغيره من الشخصيات ضد التسلل الشيوعى • وذهب وانج شنج وى رئيس الحكومة الى فرنسا لقضاء أجازة هناك بالرغم من الاحتجاج على ذهابه • ولم يعد من هناك الا فى ابريل سنة ١٩٢٧ • أما هو هان مين الذى كان ولاؤه موضع شك ، ولم يكن ذلك على غير أساس ، فقد أقصى وطرد مؤقتا • وبقى شيانج كاى شيك • وصرح بأن الموضوع كله كان مجرد غلطة •

وفى الوقت ذاته ، فان الحكومة الثورية اعتقدت أن الوقت قد حان ، أعلنت الحرب على بكين وعلى سادة الحرب الشماليين (٢٥ فبراير سنة ١٩٢٦) وكان هذا فى الواقع يعنى الحرب على وو بى فو (١٨٧٨ ـ ١٩٣٩) ، وهو الشاعر وقاطع الطريق الذى كان يعمل على مستوى بطولى ، كما كان الزعيم الحقيقى لحكومة بكين ، وعلى شيانج تسو لين ، القرصان الذى كان يحكم شمال شرقى الصين ، والذى كان منذ سنة ١٩٠٤ مواليا لليابانيين •

وفى شهر مايو ، نصب شيانج كاى شيك قائدا عاما للجيش الثورى ولم يقم بورودين ولاالشيوعيون أى اعتراض ، بل بالعكس، أصبح بلوشر مستشارا عسكريا للحملة • وفى صيف سنة ١٩٢٦، تقدم الجيش الثورى من كوانج تونج متجها شمالا عن طريق هونان وطريق تايينج وكانت الحملة تتألف من سبع فرق تضم كل منها ١٥٠٠٠ رجل • وانتشرت الثورة التى كانت تبدو مقصورة على كانتونج ، كالاعصار فى طول البلاد وعرضها • وحيـا الفلاحون والعمال وجزء كبير من البورجوازيين قوات شيانج بصفتها قوات محررة • وسقطت مدن جنوب الصين كالثمار الناضجة فى أيدى الغزاة • وهربت القوات المرتزقة التابعة لوو بى فو أو استسلمت، وبدا الموقف كما لو كان تكرارا لحملات الثورة الفرنسية فى أوروبا

حوالى سنة ١٨٠٠ • ولم يكد شهر أكتوبر يحل حتى وصلت بعض وحدات « الفرق الحديدية » الى يانجتسى واحتلت ووهان (هانكاو) حيث كانت حكومة كانتون ، المؤلفة من الجناح اليسارى والشيوعيين قد عززت مراكزها فى ١٠ نوفمبر • وفى ديسمبر دخل الجيش الثورى الموانى فى اقليم فوكين فما أن أقبل شهر فبراير سنة ١٩٢٧ حتى كان قد احتل جميع المدن الكبرى الواقعة جنوب النهر، فيما عدا شنغهاى ونانكين ، وصارا تعـــداد الجيش آنئذ حوالى ٢٠٠و٠٠٠ رجل •

ان ما حدث حيذاك يعتبر مأساة • فقد سقطت نانكين فى ٢٤ مارس كما سقطت المدن الأخرى ، وأثار وصول الجيش الثـــورى الاضطرابات فى شنغهاى ، فقد أضرب جميع العمال وقامت لجنـة ثورية كانت بمثابة حرس الطليعة للجيش ، تضـــم شو اين لاى وزعماءالعمال المعروفين شاويشى ين، وكوشون شيانج ولوبى ينج ، بتنظيم ٥٠٠٠ من رجال المقاومة المحاربين فى كتائب من العمـــال والطلبة • وغادر جيش الشمال المدينة • وعندما دخلها شيانج فى ٢٧ مارس سنة ١٩٢٧ ، كانت الثورة قد تسلمت زمـــام السلطة فعلا •

ولكن ما حدث كان أكثر مما تحتمله الرأسمالية (البورجوازية) فقد سبق ان شعرت بالمرارة بسبب نمو العناصر اليسارية فى حكومة ووهان • ثم رأت الخطر أمامها ، انه خطر مزدوج يتمثـــل فى تدخل فعلى من جانب اليابان والدول الغربية وفى قيام ثـورة حقيقية من العمال والفلاحين وانه ليحدث احيانا ان تظهر جزيـرة على سطح البحر ثم تختفىثانيةفى اليومالتالى ، وهكـــذا كانت الرأسمالية الصينية تخشى أنها حالما تتحرر منالامبريالية الغربية، قديغرقها الفيضان المكتسح لثورة اجتماعية شاملة ، وكان مايريده الرأسماليون وأصـحاب الاراضى هو مايعبر عنه المفهوم الفنى لكلمة « ثورة مضادة »

والغريب ـ فيما يبدو ـ أن يكون زعيم الثورة المضـــادة هو شيانج كان شيك • ففى الفترة ما بين شهرى ابريل واغسطس ، القى القبض فى شنغهاى وحدها على ٥٠٠٠ من العمال الشيوعيين ومن الطلبة الثوريين وأعدمهم •

وفى ١٥ ابريل اقام حكومة فى نانكين تقف ضد ووهـــان الحمراء وكان الصوت الفعال فى تلك الحكومة هو صوت الرأسماليين وأصحاب الأراضى • ولكن حكومة ووهان التى انضم اليها وانج شنج وى ، بعد عودته الى الصين عن طريق روسيا ، تصرفت فى الحال فطردت شيانج من الحزب وأعلنت تجريده من جميع مناصبه •

وما كان هذا هو كل شىء • ان وانج ووزراء حكومة الكومنتانج الرسمية لم يكونوا شيوعيين ، لقـد كانوا ثوريين بورجواريين ، يميلون قطعا الى اليسار ولكنهم لم يكونوا مستعدين بحـــال من الأحوال ، أن يعملوا ضد نانكين بمساعدة من العمال والفـــلاحين الثائرين • ومن ثم فقد عجزوا عن الدفاع عن أنفســـهم فى وجه الجنرالات الثائرين المتمردين • واندمجوا شيئا فشيئا فى الثورة المضادة ، وانتهجوا فى تردد سبيلهم الخاص للارهاب الأبيض ، ولم يدرك بورودين ولا الصينيون الشيوعيون حقيقة الخطر فى حينه • وقد بدت روسيا ، حيث بلغت المعارضة بين تروتسكى وستالين ذروتها ، غير مكترثة حينذاك بما يجرى فى الصين • ولم يفكـــر الشيوعيون فى المقاومة الفعـــالة ، الا عندما تسرع وانج فى القيام بحركة تطهير مناهضة للشيوعية (كتلك التى نظمت فى نانكين) وأقصى بورودين من منصبه وقطع العلاقات مع الدولية الثالثة ، الا أن الثورات الشيوعية فى تانشانج وكانتون لم تكن سوى احتضار من نوع رهيب •

وفى يوليو سنة ١٩٢٧ ، فر عدد من ضباط الجناح اليسارى المتطرف ، مع رجالهم ، من ووهان • وفى أول أغسطس احتلـــوا تانشانج ، فى قلب مقاطعة كيانجسى • وكانوا يؤلفـون الجيش

العشرين وفرقة من الجيش الحادي‌عشر الذى كان شوتيه وشو اين لاى يعملون في هيئة أركان حربه ، وكانا قد فرا من شنغهاى · وفى غضون اسبوع طردت القوات الثائرة من تانشانج وفى منتصف شهر اغسطس ، تحولت جنوبا وأقامت حكومة شيوعية فى ميناء سواتو · وحاصر أسطول دولى الميناء ، وفى شهر أكتوبر فر الثوار الى الداخل ، وتشتت جزء منهم ، وارتد جزء آخر الى التلال القائمة عند الحدود بين هونان وكيانجسى · وقد كان الجزء الأخير بمثابة نواة لجيش الصينى الاحمر ، وكان قائدهم هو شوتية · وفى‌ابريل سنة ١٩٢٨ ، انضموا الى ماوتى تونج وأتباعه في قرية شسينج كانشان الحصينة · وهنا ولدت الصين الحديثة اذا شئنا الابتعاد عن الطريق العريض للتاريخ الرسمى ·

ولن نصف هنا كيف نشأت الحكومة السوفييتيه الأولية فى كيانجس ـ هونان وكيف دافعت عن نفسها ضد الحملات المتعددة التى شنتها عليهاحكومة الكومنتانج قصدالقضاء عليها ،ذلك‌ان‌ظروف هذه الأداث ـ أولا وقبل كل شيء ـ لا تقع فى خلال الفتـرة التى يعالجها هذا الفصل · وثانيا : فاننا لو فعلنا ، فسنخاطر بتفسير سيىء للتاريخ ، ولا نفكر الا فى ظل مضمون الثـورة الشيوعية الصينية ، ولن نروى الظروف والأحداث الماضية لجمهورية الصين الشعبية ، كما تبدو اليوم · ان القارىء سيجد ، فيما بعد ، تاريخ الشيوعيين ·

وفى الثورة المضادة التى وقعت فى ابريل سنة ١٩٢٧ ، وفى خلال فترة الارهاب الابيض ، صيف ذلك العام ، استطـاعت البورجوازية ـ ولو بصفة مؤقتة أن تهزم الشيوعيين هزيمة تامة ، فتوقفت الثورة الزراعية ، وتحطمت حركة العمال فى المدن · وفى منتصف شهر ديسمبر ، أعدم ألفان من العمال والزراع والطلبـة الشيوعيين فى شوارع كانتون ، انتقاما للمحاولة اليائسـة التى

قاموا بها فى ثورتهم • وبعد هذه المرحلة التى أطلق عليها التاريخ اسم « كوميون كانتون » ، تشبها « بكوميون باريس » الذى قضى عليه فى حركة دموية فى عام ۱۸۷۱ ، انطفأت جذوة الحزب الشيوعى فى المدن • والواقع أن البقية التى بقيت منه هى التى ألفت حركة المقاومة • ومن بين ۱۳٫۰۰۰ عضو من أعضاء الحزب فى عام ۱۹۲۹، لم يبق الا ٥٠٠٠ فى المدن الكبرى •

وفى خلال هذه الفترة ذاتها ، تمزقت الحكومة اليسارية فى ووهان • وكما هو الشأن فى كل حالة ، لم تكن الرجعية لتقتنع بتدمير الجماعات اليسارية الراديكالية ، بل أنها هاجمت كل شىء تراه بالنسبة لها يساريا • وفى ديسمبر ، عين شيانج للمرة الثانية قائدا أعلى • وفى عام ۱۹۲۸ تولى كذلك رياسة الحكومة ، وقطعت العلاقات الديبلوماسية مع روسيا • وبعد ذلك بأسبوع • ذهب وانج وبى وكبار المسئولين فى الكومنتانج ، ممن كانوا من الجناح اليسارى ، ومن بينهم زوجة صن ، الى أوربا واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية • وكانت حكومة نانكين هى حكومة الصين (الكومنتانج) ، أى الصين الواقعة جنوبى يانجتسى •

وعندما غير شيانج سياسته ، غير زوجته كذلك • ففى أول ديسمبر ، تزوج زوجته الرابعة وهى سونج لى لينج ، وهى من أسرة التاجر الثرى الموالى للامريكيين ، تشارلس جون سونج • وقد تزوجت كريمتاه الأخريان : شينج لينج وآن لينج ، الأولى من صن يات سن والثانية من الدكتور كونج هيسانج هوى وهو من أصحاب البنوك • ولئن كانت هناك أسرة واحدة تتمتع بنفوذ خاص فى الصين ، فى ظل الكومنتانج ، فلقد كانت هذه الأسرة هى أسرة سونج • وكان ينتمى الى هذه الأسرة ذاتها سونج تسو فين (الدكتور ت•ف• سونج) مدير بنك الصين (۱۹۳۳ ــ ١٩٤٤) ووزير الخارجية بعد ذلك (١٩٤١ ــ ١٩٤٥) • وكان كونج هيسانج هوى

وزيرا للمالية فى حكومة نانكين • ولقد كشف زواج شيانج ومى لينج عن خيانته لماضيه الثورى مع حزبه ، وان كان هذا غير معروف بوجه عام ، فقد استأجر للزواج أكبر فندق فى شنغهاى ، ودعا جميع الأجانب البارزين • ومن بينهم القائد الأعلى للقوات البريطانية فى الصين •

وفى ابريل سنة ١٩٢٨ ، استؤنفت الحمله ضد بكين وبقية مناطق الشمال • وبدا ان اثنين من حكام المقاطعات وملاك الأراضى على استعداد للاعتراف بشيانج قائدا أعلى ، وهدان هما ين‌هسى‌شان (من شانسى) وفينج يوهسيان ، الجنرال المسيحى العتيد ، فى شمال غربى شنسى وهوبى • وسقطت الصين الشمالية كالثمرة الناضجة ، فى أيدى الغزاة • ولم يبد أثر للمقاومة الا فى تشانتونج• على يد قوة يابانية فى تسينان (من ٣ - ١١ مايو ١٩٢٨) وقد انسحبت فى مايو • وبدا ان طوكيو لم تكن مستعدة للمخاطرة بتدخل واسع النطاق ، وفى ٨ يونيو دخل جيش الكومنتانج بكين • ولقد وجدت المرارة الشاملة ضد اليابان وسيلة للتعبير عن نفسها فى صورة مقاطعة للبضائع اليابانية ، على نطاق كبير (١٩٢٨ - ١٩٢٩) •

وفى الوقت نفسه أدرك شانج تسو لين حليف اليابانيين ، وحاكم منشوريا أن الموقف قدتحول وأعلن‌فى تلك اللحظةاستعداده للاعتراف بحكومة نانكين بوصفها الحكومة الوطنية للصين ، فلم يرق هذا فى أعين السادة السابقين ، أى اليابانيين ، وقتل ، ففى ٤ يونيو نسف قطاره الخاص الذى كان يستقله بين بكين وموكدن • وظل الحاكم الجديد ، وهو ابنه تشانج هسو ليانج (المولود فى ١٨٩٨) مواليا للصين ، وفى نوفمبر اعترف بحكومة ناكين وبدت الصين ، من ناحية المظهر الخارجى على الأقل ،دولة متحدة •

وبالرغم من أن دوافع الثورة قد خفت فى خلال الزحف من

كانتون الى موكدن ، وقد امتدت مسافة ٢٥٠٠ ميل ، فان شيانج قد حقق جزءا كبيرا من حلم « صن » والصين الحديثة ، وهذا ما نقصد به ـ اذا فكرنا في المضمون التاريخى ـ خدمته الخـاصة لبلاده ، ولن يعجز مؤرخ محايد عن ان يتبين كيف أن حكومة نانكين قد صارت رجعية بالتدريج ، فان قمع حركة العمال ، والحملة ضد ثـورة الزراع ، ودعم النظام الاجتمـاعى الوثيق الصلة بالعصور الوسطى ، كل هذا كان بمثابة أخطاء شنيعة من ناحية البورجوازية المهددة • ومهما يكن من أمر ، فان شيانج سيبقى الزعيم الذى خلق الطابع العصرى الرأسمالى للصين • وسيبقى رمزا له ، وسيظل هذا طابعه فيما يتعلق بتخليص البلاد من المستنقع القاتل الذى دفعه اليها الاستعمار الأجنبى منذ منتصف القرن التاسع عشر •

وقد انعكس التحول فى الموقف على التحول فى سياسة الدول الغربية ، ففى صيف سنة ١٩٢٧ وشتائها ، اعترفت ١٢ دولـة بحكومة نانكين ، كانت من بينها : الولايات المتحدة وبريطانيـا وفرنسا • وسمح للصين حينئذ بان تحدد تعريفتها الجمركية الخاصة وفى حوالى سنة ١٩٣٠ ، فقدت تسع دول ما كان لها من امتيازات اقليمية ، بالرغم من أن الدول العظمى احتفظت بحقوقهـا حتى الحرب العالمية الثانية ، وفى عام ١٩١٩ أعلن الروس انهم تخلوا عن هذه الامتيازات جميعا ، وقد تأيد هذا رسميا فى ١٩٢٤ • ولم يبق الا بريطانيا وفرنسا واليابان والولايات المتحدة وهى الدولة التى احتفظت بامتيازاتها شبه الاستعمارية فيما يسـمونه الامتيازات الدولية ، فى المدن الكبرى القائمة على الأنهار • وسلمت « ويهاوى » القائمة على الساحل فى شمال شرقى مقاطعة شانتونج الى الصين فى عام ١٨٩٨ وجعلوا منها قاعدة بحرية •

وبدا التحول فى علاقات الصين الخارجية واضحا كذلك بفضل القروض التى قدمها البريطانيون والأمريكيون لحكومة نانكين والتى هيأت أساسا ماليا يصبغ الحياة الاقتصادية والثقافية فيها بالصبغة

الحديثة • ففى موانى البحار وموانى الأنهار ظهرت الى جانب الشركات البريطانية والاميريكية واليابانية مصانع صينية متعددة يملكها الصينيون • وتحسنت وسائل المواصلات • وفيعام ١٩٣٧، انشئت خطوط حديدية تبلغ طولها ١٩٫٠٠٠ ميل ، وهو ما يعادل الخطوط القائمة فى الهند فى الوقتالحاضر ، ويعادل ما كان موجودا فى روسيا فى عام ١٨٨٠ • ويبدو هذا التحسن ضئيلا اذا قورن بمثيله فى الدول الغربية • ففى الولايات المتحدة اليوم أكثر من ٢٣٠٫٠٠٠ ميل من السكك الحديدية • وفى روسيا حوالى ٨٨٫٠٠٠ ، وفى البلاد الأصغر نسبيا مثل فرنسا وبولندا ، يوجد خطوط يبلغ طولها ٢٥٫٠٠٠ و ١٨٫٧٠٠ ميل على التعاقب • ولكنه بالنسبة للصين يعنى ان ما لديها من خطوط قد تضاعف بالقياس الى ما كان عليه فى عام ١٩١٤ • وفى الفترة المحصورة بين ١٩٢٧ و ١٩٣٧ بنيت فى الصين طرق حديثة طولها ٧٥٫٠٠٠ ميل ، وهذا ما يعادل أربعة أمثال ما أنشىء حتى عام ١٩٢٧ واختفت الحواجز الجمركية بين المقاطعات فى عام ١٩٣٢ ، وكانت عقبة أبدية فى سبيل التجارة وبلغت ما يقرب من ٥٠٠ حالة • وكان معنى حرية التجارة بين المقاطعات كذلك أن انتشار القيم الثقافية صار أيسر وبفضل الصحف والمجلات الكثيرة المتعددة ، التى تعالج الفنون والعلوم ، صارت الثقافة فى متناول الصين جميعا ، بعد أن كانت ، فى فوضى الحرب الأهلية ، مقصورة على الجامعات البعيدة ، وعلى دراسات الأفراد •

وفى عام ١٩٣٠ بدت الصين ، من جميع مظاهرها ، وهى تتحول الى دولة ديمقراطية حديثة ، اذا ما قورنت على الأقل بالدول الاسيوية الأخرى ـ الواقعة بين تركيا واليابان ، وفى الحدود التى فرضتها عليها حكومة بورجوازية • ولم تعد أرض صيد يلهو فيها الاستعمار ، بل صارت أمبراطورية موحدة ، من مزارع الشاى فى هينان الى غابات الأخشاب الواقعة على نهر نمور فى روسيا •»

الا أن هذه الوحدة المتكاملة وهذه الصبغة الحديثة التى اتخذتها الصين ، فى مستهل عهد تشيانج هما اللتان أثارتا غضب الاستعمار اليابانى ، فالصناعة اليابانية عجزت عن العمل ورغبات الراسماليين فيها لا يتيسر تحقيقها ، دون قطن الصين وحديدها وفحمها ، وفوق هذا كله ، دون أسواق الصين • وكان التوسع غير العادى للامبراطورية القائمة على الجزر يتطلب منها أن تمتلك موارد أجنبية للثروة الاقتصادية • والا بدت هذه الملكية مهددة • وحتى أولئك الذين لا يدرون المنهاج الذى سلكه التاريخ ، يستطيعون أن يتصوروا ما كان مقدرا أن يحدث ، بل ما وقع فعلا من أحداث فى صيف عام ۱۹۳۱ • ان التاريخ يطلق عليها اسم « حادث موكدن » وهذا ما سنعالجه الآن •

٢

الصين

ان الوحدة والرخاء النسبيين للصين فى « ظل الكومنتاج » قد أثارا الاستعماريين اليابانيين لانهما كانا أساسا رائعا لخلق دولة يمكن أن تكون منافسة لليابان ، فضلا عن ابتعادها عن فكرة تأييد الاستعمار الياباني • وكان الجيش اليابانى مستعدا للعمل فى عام ١٩٣٠ . وقد روينا من قبل الحوادث التى تعاقبت بحكم السياق ففى ٢٧ يونيو سنة ١٩٣١ قتل الجنود الصينيون فى غرب منشوريا ضابطا يابانيا أو قل جاسوسا يابانيا اسمه ناكامـــورا . وفى ١٧ اغسطس نشرت طوكيو بيانا رسميا عن الحادث ، قصد منـــه فى بساطة وفى صراحة ، اثارة الرأى العام ضد الصين . ومضى كل شىء يومئذ طبقا للخطة الموضوعة . وفى ليل ١٨ – ١٩ سبتمبر قام جيش كوانتوتج اليابانى بمناورات ليلية قرب موكدن• وكان هذا الجيش مقصورا فى أعماله على المنطقة التى يرابط فيها على الشقة اليابانية من كوانتوتج (التى أقيمت بمقتضى معاهدة سنة ١٩٠٥) وذلك فى الجزء الجنوبى من شبه جزيرة ليوتونج . ولكنه استخدم باستمرار ، وبطريقة تجافى القانون ، فى خطوط السكك الحـديدية المختلفة ، التابعة لليابان ، فى اجزاء أخرى من منشوريا . وفى الصباح الباكر من يوم ١٩ سبتمبر ، وقع انفجار فى مكان ما ، على قنطرة السكة الحديد . هل كان الصينيون هم المسئولون أم اليابانيون ؟ من يدرى ؟ على أية حال لقد كان هذا هو الحادث الثانى • وقبل أن يجىء الصباح ، كانت القوات اليابانية قد احتلت موكدن وبعض المدن الصينية الاخرى مثل انتونج وتسانجشون ، وراح الجنـود يتقدمون فى طول البلاد ، والصينيون ينسحبون باطراد . وعنـدما

احتلت خاربين فى ٥ فبراير سنة ١٩٣٢ ، سقطت منشوريا كلها فى أيدى اليابانيين ٠

ونحن نسلم بأن الدول الغربية ولا سيما الولايات المتحدة ، أعلنت انها لن تعترف باى امتداد لرقعة الاراضى اليابانية . وهنا نذكر معاهدة الدول التسع الموقعة فى واشنطون عام ١٩٢٢ .ولكنها لم تذهب الى ما هو أبعد من مجرد الاحتجاج الدبلوماسى . ولم يكن هناك من اثر سوى المقاطعةالتى اعلنت فى نوفمبر سنة ١٩٣١ . فقد هبطت بتجارة اليابان الخارجية الى النصف . ولكن اليابانيين ردوا دون ابطاء ٠ نزلت الفرق اليابانية قرب شنغهاى وبعد قتال عنيف طردت الجيش الصينى التاسع عشر (٣ مارس ١٩٣٢) ولم تنسحب الا بعد أن انهت الحكومة الصينية المقاطعة ، تحت الضغط اليابانى .

وفى الوقت نفسه أعلن اليابانيون أن منشوريا مستقلة ، واطلقوا عليها اسما جديدا هو « منشوكو » واذيع البيان فى ١٨ فبراير ١٩٣٢ فى هسينيكنج ومعناها العاصمة الجديدةوهى التى كانت من قبل تشمل شانجسون وقد استردت اليوم اسمها القديم ٠٠ وعينوا امبراطورا لمنشوكو (فى عام ١٩٣٤) وهو الرجل المأجور بويى الذى ينخذ لنفسه اسما مستعارا هو كونج تيه ، وكان آخر أباطرة الصين ٠ وبعد فراره من بكين فى عام ١٩٢٤ اتصل فى الحال بالمستعمرة اليابانية فى تينستين ، وظل امبراطورا صوريا لمنشوكو الى أن قبض عليه الروس عندما غزوا منشوريا فى صيف سنة ٩٤٥. ، وكان رد الفعل الوحيد ، من جانب الدول الغربية وكانت حينذاك غارقة فى الأزمة الاقتصادية الخانقة هو تقرير « ليتون » الى عصبة الأمم (اكتوبر ١٩٣٢) ، وفيه وصف عمل اليابان بانه غير مشروع ولم يرد أى ذكر لأية اجراءات مضادة ٠

ان حادث موكدن هو البداية الحقيقية للتوسع اليابانى فى الصين وجنوب شرقى اسيا ، ومن يناير الى مارس عام ١٩٢٣ ، احتل

اليابانيون أقليم « جيهول » ووصلوا الى السور العظيم . وفى عام ١٩٣٥ انسحبت القوات الصينية من تشاهار (بين جيهول ومنغوليا) ومن هوبى التى تضم بكين وتينستين . كل هذا وسياسة النعامة التى اتبعتها الحكومة الصينية كان معناها استعمارا اقتصاديا جديدا للصين فقد كانت الاراضى التى احتلتها اليابان تضم ٤٠ فى المائة من السكك الحديدية الصينية و٨٠ فى المائة من مناجم الفحم والحديد . وفى خلال الحرب العالمية الثانية حصلت اليابان على ثلثى حديدها ونصف فحمها من شمال شرقى الصين ، أى المنطقة التى سبق أن احتلتها فى عام ١٩٣٣ . وفى الاراضى التى ظلت حرة فى الصين ، كان الراسماليون اليابانيون يملكون ثلاثة أرباع مناجم الحديد وافران الصهر ونصف مغازل القطن ومصانع نسج الصوف ، وكانوا يسيطرون كذلك على ٤٠ فى المائة من تجارة الصين الخارجية .

كان الاستعمار اليابانى خطيرا بالتأكيد ، وكان كل امل فى التدخل الغربى مايزال وهما محضا ، فقد شرعت الحكومات الفاشية فى اوروبا فى ذلك الوقت نفسه ، فى التوسع وفى أعمالها الرهيبة وكان احتلال الالمان من جديد لمنطقة الراين المنزوعة السلاح (٧ مارس سنة ١٩٣٦) وهجوم ايطاليا على الحبشة (اكتوبر ١٩٣٥ الى مايو ١٩٣٦) والتدخل الفاشستى فى الحرب الاهلية الاسبانية (١٨ يوليو سنة ١٩٣٦ الى ابريل سنة ١٩٣٩) كل هذه الاشياء كانت بمثابة اشارة الى اليابان بانها طليقة اليد فى أن تمضى فى طريقها التوسعى ، كما أن نجاح الاستعماريين اليابانيين شجع الفاشيين فى اوروبا .

وفى سبتمبر سنة ١٩٣٦ هددت طوكيو سرا بان تستولى على شمال الصين وجنوبها جميعا اذا لم تقبل حكومة نانكين هذه الطلبات : (١) عمل يابانى صينى مشترك ضد الشيوعيين والعصابات فى الصين الحرة (٢) الحاق اليابانيين بجميع مصالح

الحكومة الصينية . (٣) الحكم الذاتي للمقاطعات الخمس الشمالية: جيهول وشاهار وهوبى وشانسى وشانتونج (٤) خفض الرسوم الجمركية الى الأرقام التى كانت سائدة فى ١٩٢٨ .

وقد رفضت الحكومة الصينية هذه الطلبات ولكنها لم تتخذ اجراء أخر . فلم يكن هناك اعلان للحرب ، ولا تعبئة ، حتى ولو كانت ضد الغزاة اليابانيين على الاقل . بل كان الامر على العكس ، مضى العملاء اليابانيون فى مهمتهم دون أن يعوقهم عائق وصدر قانون جديد يمنع الدعاية المناهضة لليابان فى جميع انحاء الصين.

وقد أطلقنا على شيانج كاى شيك . فى فترة سابقة ، اسم المنظم الاستراتيجى للثورة الصينية ، والرأس المفكرة للكومنتانج ، فى فترة عاصفة من فترات تجديد البلاد ، فكيف ان هذا الزعيم ، العظيم من جميع نواحيه ، قد انقلب خائنا ؟ ان السبب قد يكمن فى وجهات النظر الرجعية فى حكومته ، الرجعية بمعنى العمل على تغيير المجرى الطبيعى للتاريخ ..

لقد حاول شيانج فى القرن العشرين أن يفعل ما فعلته أوروبا وأمريكا فى القرن التاسع عشر .. لقد أراد أن يخلع الثوب العصرى على بلاده ، ولكنه لم يكن يستشعر فى قلبه سوى المصالح الحقيقية والمزعومة للبورجوازية .. أما وقد بدأ الكومنتانج بتطهير الجماعات اليسارية فى عام ١٩٢٧ ، فقد إتجه أكثر فأكثر الى اليمين .. وكان الجناح التقدمى فى الحزب . وهو المجموعة التى ترؤسها مسز صن .. والتى عادت الى الصين فى عام ١٩٣٠ ، قد حرمت من كل ألوان النفوذ ، وكان شيانج دكتاتورا فى حكومة للبورجوازية العليا ، وأصحاب الصناعات وأصحاب المصارف والتجار الأثرياء وكبار ملاك الأراضى ، وكانت مقاومة الحزب لحركة العمال والفلاحين هى رد الفعل الطبيعى لحكم طبقى مبالغ فيه .. والروايات التى تحكى عن الارهاب الابيض ليست من قبيل قصص الجنيات .. قمعت إضرابات العمال الكبرى فى الموانى الصينية

بين عام ١٩٢٨ وعام ١٩٣٠ بنفس القسوة التى قمعت بهـــا ثورة الفلاحين فى هونان فى عام ١٩٢٧ .. وقد صرح أحد أقطاب حركة المقاومة ، هسو هاى تون ، للصحفى الامريكى ادجار سنو ، فى عام ١٩٣٧ بأن من بين أفراد أسرته وحدها ، أعدم الكومنتانج ستين شخصا ..

وكان للخطط الرجعية للحكومة آثارها المحتـومة ، وكانت كل مقاومة فعلية للاستعمار اليابانى والغربى بين عام ١٩٣١ وعـــام ١٩٣٧ عديمة الجدوى .. ولم يخسر شيانج جيوشه القليلة المجهزة تجهيزا حديثا فى الحملات ضد جماعات المقاومة فحسب ، كمـــا سنرى فيما بعد ، بل انه اعترف فى الوقت نفسه بأن شـن حرب حقيقية للتحرر من الغزاة الأجانب معناه انتهاج سياســـة الجناح اليسارى قطعا ..

وهذه الفترة من تاريخ الصين تعد مثلا ملحوظا يثبت كيف أن دولة اسيوية ، بفضل سيطرة طبقة حاكمة قليلة العدد ، ولكنهـا عصرية التفكير ، تستطيع دفع الاستعمار الأجنبى الى مازق لا مهرب منه . مستعينة فى الوقت نفسه بالمشاعر المناهضة للامبرياليـــة والاستعمار .. من جانب الفلاحين والعمال ، وهــــذا أمر عام بالنسبة لتاريخ الامبريالية الحديثة وبالنسبة للتاريخ المعاصر فى مراحله الأخيرة .

هل خان شيانج الصين ؟.. قطعا انه لم يكن يدرى ، كما كان حال الوزير الذى ازداد ولاء لليابانيين وهو وانج شينج وى ، الذى صار فيما بعد على رأس الحكومة الصورية فى الصين ، التى يحتلها اليـــابانيون .. وعلى أية حال ، فان شيانج قد حاول القضـــاء على المقاومة الطبيعية للعدوان اليابانى ، وعمل على تخريب تلك المقاومة ، لأنه لم يكن مستعدا لتحرير الفلاحين والعمال .. لقد رفضت الحكومة الصينية أن تعلن الحرب على اليابان ، سواء عند وقوع حادث موكدن ، أو عند احتلال منشوريا ، أو عندما تمزقت

جيهول وتشاهار ، أو عند وقوع التهديدات من طوكيو في عـام ١٩٣٦ ، وكان لابد من أن تصير تلك الحرب بالتأكيد حربا عادلة •
ولكن شيانج تردد ، ولم يتغير الحال الا في شتاء سـنة ١٩٣٦ عندما وقع حادث خارق للعادة ـ وربما كان فريدا في التـاريخ ـ وكان من شأنه ادخال تعديل طيب على خطط الاستسـلام الخطين الذى تميز به شيانج ، ولكننا قبل أن نعالج هذا ، يجب علينا أن نصف أعمال الشيوعيين الصينيين وتجاربهم ، وهى وحدها التي تهيء لنا تفسيرا للتحول التاريخي ، ديسمبر ١٩٣٦

لقد سبق لنا أن تحدثنا عن تطور الثورة الصينية بين عـام ١٩١٩ وعام ١٩٣١ ، وبينا كيف أنه على أثر حركة الانقلاب في عام ١٩٢٧ ، اعتبر الحزب غير مشروع ومنع نشاطه •• وكيف ان ٢٥ ألفا من الشيوعيين والعمال والمثقفين الثوريين قد قتلوا في المدن وكيف أن حفنة من الثوار قد فرت الى التلال ، ولا سيما الى المناطق المفتقرة الى الطرق •• على حدود هونان وكيانجسى •• وهى تقع على بعد ٢٥٠ ميلا تقريبا شمالى كانتون ، وبدا انهم اختفوا من التاريخ كما تختفى سفينة فى البحر بضربة طوربيد •

ولقـد تألف في الواقع أول « سوفييت » صـيني ، أى أول حكومة شيوعية أهلية ، فى شالين ، فى جنوب غربى هينان ، فى نوفمبر سنة ١٩٢٧ ، وفى خلال الشتاء القارص لعام ١٩٢٧ـ١٩٢٨ اعتقل ١٠و٠٠٠ من رجال المقاومه في معسكر قرب قرية شينجكانشان الجبلية التى تكسوها الثلوج ، وكان قائدهم العسكرى ورئيسـهم السياسى هو ماوتسى تونج •• وفى مايو سنة ١٩٢٨ وصـل عدد آخر من الهـاربين من ووهان . وكان من بينهم شوتيه ، أغسطس ١٩٢٧ ، ومن بين هذه التشكيلات الأولية ، تألف سرا جيش الصين الاحمر الأول في جنوب كيانجسى •• وكانت ثورة الفلاحين ، وهى الثورة الصينية الثالثة فى القرن العشرين ، هى ثمرة دعايتهم ••
وفى عام ١٩٢٩ استولى الثوار على جنوب كيانجسى بأكمله •

وتألف أول « سوفييت » اقليمى (سوفييت كيانجس) فى ٧ فبراير سنة ١٩٣٠ ٠٠ وفى الوقت نفسه قامت جيوش المقـــاومة وحكومات السوفيتيات المحلية فى كل مكان ، ولا سيما فى انهوى وهونان ٠

ماذا كان يفعل الشيوعيون ؟ وماذا كان سرهم ؟٠٠ لقد فعـل الشيوعيون ، فى نظرنا ، ما فعلته البورجوازية الفرنسية مثلا فى ثورتها عام ١٧٨٩ ، وما عجزت الحكومة الصينية عن فعله ٠٠ لقد حطموا الاقطاع فى الأرض ، أى انهم وزعوا اقطاعيات ملاك الأراضى على الفلاحين الفقراء وحرروهم من النير الذى ظلوا يرزحون تحتـه قرونا ٠٠ وان صغار الفلاحين ليؤلفون الأغلبية العظمى من سكان الصين ، ولقد استمر الشيوعيون فى الدعـــاية وأعطوا الزراع ما كانت تتمناه قلوبهم ٠٠ هذا هو « اللغز الاحمر » ، ولقد ساعدهم فى صراعهـــم ضد جيش شيانج ٠٠ الذى دربه الألمـــان ٠٠ اعتصامهم بالمناطق البعيدة التى كانوا يحتلونها . وقلة مواصلاتهم وتهديدات اليابان ، ولكن هذه المساعدة كانت أقل من المساعدة التى قدمها لهم صغار الزراع والعمال فى الارض ، وكان شأنهم فى ذلك شأن هوتشى مينه ، وقد ساعده فيما بعد زراع الهند الصينية فى كفاحه ضد الفرنسيين وجنود الفرقة الأجنبية المنضمين اليهم ٠

وكان أبرز زعماء حركة الفلاحين هم : ماوتسى تونج ، وشو تيه وشوا ين لاى ٠٠ وقد انحدر ماو من أسرة ريفية ثرية نسبيا فى شاوشان ، فى هونان عام ١٨٩٣ ، وتعلم فى شانجشا فى الفترة ما بين ١٩١٢ و١٩١٨ ، كما درس فترة من الوقت فى جامعة بكين، حيث تأثر بالعالمين الماركسيين ، كشين توتشو ، ولى تاتشـــاو ، وفى سنة ١٩٢٠ صار شيوعيا ٠

وفى أثناء الثورة المضادة لعام ١٩٢٧ ، تخلى عن منصبه كمدير لمكتب دعاية الكومنتانج ، وسكرتير للجنة الفلاحين فى الحـــزب

وهرب الى التلال فى هونان ـ كيانجسى ، وهناك أصبح فى ١٩٣١ سكرتيرا للحزب الشيوعى الصينى ٠

أما شو اين لاى (المولود فى ١٨٩٨) وهو دبلوماسى الحزب الفائق ، ورئيس الوزراء ووزير الخارجية بعد ذلك ٠٠ فانه مثل ماو والكثيرين من الطلبة الصينيين الآخرين والمثقفين ، أصبح شيوعيا فى وقت مبكر ٠٠ ومن عام ١٩٢٠ الى عام ١٩٢٤ ، درس فى برلين وفى لندن وكذلك فى باريس حيث شكل جماعات الشباب فى الحزب الشيوعى ٠٠ وقد نظم ، بوصفه سكرتيرا لأكاديمية سنة ١٩٢٧) عندما كانت جيوش الكومنتانج مشغولة بحملاتها وامبو (١٩٢٤ـ١٩٢٧) ، ثورة العمال فى شنغهاى (٢١ مارس فى الشمال ٠٠ وكانت هذه الثورة هى السبب المباشر لحركة شيانج الانقلابية فى ابريل ٠٠ وفر شو الى ووهان وكان له نشاطه بين ثوار نانشانج وبعد ذلك اختفى عن الأنظار ٠٠ وفى سنة ١٩٣١ عندما تكونت فرق المقاومة « سوفيتات » القرى فى كيانجسى ـ فوكين ، وجد أنه يتخذ فيها مكان الصدارة ٠

أما الشيوعى الصينى الكبير الثالث ، شوتيه (المولود فى عام ١٨٨٦) فكان له تاريخ مختلف اختلافا كبيرا ٠٠ لقد تولى القيادات العليا فى جيوش العصابات المختلفة فى الأقاليم ، فى يونان مثلا ، وكان يحيا حياة رغدة بين زوجاته التسع ومحظياته ، ويدمن الأفيون ، ولكنه بالرغم من أسلوب حياته هذا ، فقد كان له عيب واحد كبير ، هو أنه كان ذكيا ، وكان يقرأ كثيرا جدا ٠ وفى حوالى عام ١٩٢٢ أخذ يدرك كيف انه وهو فى وسط حريمه ، ومع ادمانه الأفيون ، سيدمر نفسه ويدمر معه بلاده التى كانت قد وقعت فى فوضى القرون الوسطى٠٠ فاستغنى عن جميع زوجاته ومحظياته معا وعالج نفسه من تعاطى الأفيون بالاقامة لمدة ثلاثة أسابيع فوق ظهر سفينة فى يانجتسى ، حيث لا سبيل الى الأفيون ٠٠ ثم ذهب الى المانيا وهناك قرأ كتابا من كتب نينين هو « الدولة والثورة » ،

ثم قصد الى باريس وذهب أخيرا الى موسكو وعاد منها الى شنغهاى وهو ثائر مؤمن بالثورة ، وفى أبريل ، وكان قائدا لكتيبه المقاومة فى تلال كيانجسى ، انضم الى ماو ، وفى عام ١٩٣١ صار قائدا أعلى للجيش الأحمر .. وفى عام ١٩٣٤ صار على رأس جيش نظامى قوامه ١٥٠٠٠٠ رجل مزودين بـ ١٠٠٠٠٠ بندقية و٥٠٠ مدفع رشاش ، يساندهم مثل هذا العدد من الفلاحين الثائرين ، المنتشرين فى البلاد ..

وفى البداية لم ترد من اقاليم « السوفيتيات » المنسيه سوى اخبار قليلة ، سواء للصين ذاتها أو للعالم الخارجى ، وكل ما ورد كان عبارة عن قصص عن « العصابات الحمراء » . وعن نهب المزارع الغنية وقتل أصحاب الأراضى والفلاحين ، وبطبيعة الحال كانت هناك تفصيلات رهيبة عن حوادث الاغتصاب الجنسى ، وخيالات الصحفيين الغربيين .. وكان الحصار الذى ضربته نانكين على الأنباء فعالا .. فلم يعلم الغرب شيئا عما حدث فى الصين ، بين حوادث ابريل ١٩٢٧ واختطاف شيانج كاى شيك الغامض فى شنسى ، فى شهر ديسمبر ١٩٣٦ ، الا فى عام ١٩٣٧ .

وفى سنة ١٩٣٧ ظهر كتاب يقع فى ٤٥٠ صفحة ، يمكن أن يسمى فى الوقت الحاضر كلاسيكيا .. وهو « النجم الاحمر فوق الصين » ، لمؤلفه ادجار سنو .. وقد زار سنو « السوفييتات» فى الشمال الغربى ، متحديا أمر الحكومة الصينية ، وبالرغم من التحذيرات الودية جميعا ، وقضى مع ماو بضعة أسابيع وخصص امسياته للتحدث مع الأقطاب الشيوعيين .

وفى الوقت نفسه كانت نانكين تصدر بلاغات ، فوارة بالمبالغة، عن حملات الحكومة ضد العصابات الحمراء .. ولم يكن لهذه الحملات ، التى تستهدف القضاء على الشيوعية ، من نتيجة والدليل على هذا يكمن فى عددها وفى عدد الرجال الذين عبئوا لها .. فقد عبىء للحملة الأولى (ديسمبر ١٩٣٠ - يناير ١٩٣١) ١٠٠٠٠٠

رجل . وعبىء للثانية (مايو - يونيو ١٩٣١) ٢٠٠,٠٠٠ رجل ، وعبىء للثالثه وللرابعة فى صيف ١٩٣١ وصيف ١٩٣٢ ، أى عج خلال الغزو اليابانى لمنشوريا : ٣٠٠,٠٠٠ رجل .. ومع هذا فان الجيش الاحمر كان لا يزال قائما . بل كان فى الحقيقة يزداد قوة . ولم يستطع شيانج الصمود ، وفى سنة ١٩٣٤ ، بدلا من أن يعبىء الصين ضد اليابان ، ركز جميع قواته الحديثة لمحاصرة أقاليـــم « السوفييتات » ، وفى خارج هذه الاقاليم ، وعلى حدود كيانجسى ، أقام أربعة صفوف من القلاع الصغيرة ومصاطب المدافع الرشاشة وانشأ مئات الأميال من الطرق التى يمكن للجيوش أن تستخدمها ، وعبـ جيشا قوامه ٩٠٠,٠٠٠ رجل وزودهم بالمدفعية والطائرات ، ضد الـ ١٠٠,٠٠٠ بندقية التى كانت فى أيدى الشيوعيين . وقم جلاء السكان المدنيين وأغرق محصول الارز أو انتزع من حقوله ... وكان من نتيجة هذا ، كما يتبين من الارقام الرسمية للكومنتانج ، أن حوالى مليون فلاح وزوجاتهم وأطفـــالهم هلكوا بسبب الجوع أو المرض .

وكان المعتقد آنئذ انه يستحيل على جندى شيوعى واحـد أن يفلت من القلعة المحاصرة ، وكان من الممكن أن نتبين بسهولة أن خطط الحملة الخامسة كانت ألمانيا . ومن عمل المستشار العسكرى لشيانج (١٩٣٣ - ١٩٣٨) وهو هانز فون سيكت الرئيس السابق لهيئـة أركان حرب الجيش التركى (١٩١٧-١٩١٨) وقائد قـوات الدفاع الوطنى بجيش الرايخ الألمانى بين عام ١٩٢٠ وعام ١٩٢٦.

واستمر حصار واحتلال أراضى « السوفييتات » من أكتـوبر ١٩٣٣ الى اكتوبر ١٩٤٤ ، وفى خلال هذه الشهور فقـــد الحمر ٦٠,٠٠٠ رجل ، وكان ماو ورجاله يفتقرون الى كل شىء : الذخيرة والارز والمواد الطبية .. وصارت الامور بالنسبة لهم لا تطاق ... ومن ثم فقد اتخذ قرار خطير .. انهم لن يستسلموا ، بل عـــلى العكس ، لقد وضعوا خطتهم لاجراء يائس فى حقيقة الأمر ، وهو

أن يفروا من أراضيهم الزراعية وأن ينقلوا الجيش الأحمر وحكومة السوفييتات الى شمال غربى الصين ٠٠ وهناك سيكونون أكثر امنا وستزداد قدرتهم على مهاجمة اليابانيين ، بفضل الموقع الجغرافى الجديد ٠٠ لقد كان الكفاح ضد الاستعمار من الخطط الهامة فى البرنامج الشيوعى ، وفى الواقع كانت حكومة السوفيتيات قد أعلنت الحرب على اليابان فى مستهل عام ١٩٣٢ ٠

وفى ١٦ اكتوبر سنة ١٩٣٤ ، تركز ٩٠٠٠٠ر٩٠ رجل من الجيش الاحمر فى بوتو ، فى جنوب كيانجسى ٠٠ وفى المساء ، أصدر شوتيه وماو الأمر بالهجوم ، بينما حاولت مؤخرة المقاومة أن تغطى عملية الانسحاب ٠٠ وفى خلال الفترة المحصورة بين ٢١ اكتوبر و٣٠ نوفمبر ، فاجأ الجيش الاحمر العدو حقا ، وفى سلسلة من الهجمات الليلية ، الباهظة التكاليف ، شق طريقه وسط صفوف الاستحكامات الأربعة ، التى أنشأها سيكت وزحف غربا صوب هونان ٠

ومن ثم بدأ ما يعرف فى التاريخ الصينى باسم « الزحف العظيم » (شيانج شينيج) أو زحف ال ٢٥٠٠٠ر٢٥ ٠٠ لقد كان عملا عظيما فريدا بطوليا غير متوقع ، ولم يسبق له مثيل فى التاريخ العسكرى الحديث ، لا بل حتى فى الحرب الأهلية الروسية ٠٠ وعندما وصل الجيش الاحمر الى مقاطعة كويشو بعد قتال شاق لا يتوقف ـ ورجاله جياع انصاف عرايا ـ كان الجيش قد فقد ثلث عدد رجاله ، وبقى فى كويشو اربعة شهور وهو يخوض حرب مناورات ، وينشر الدعاية الشيوعية بين الفلاحين ويجند كثيرا من المتطوعين ويدمر الكثير من فرق العدو ، ومن هناك زحف غربا الى الأراضى الجبلية فى يونان ، ثم تحول شمالا ٠

وراحت قوات شيانج وطائراته تهاجمه ولكنها لم تستطع صده ٠٠ لقد شق هؤلاء (العراة) طريقهم فى نظام تام بالرغم من جميع المتاعب والآلام ، وكان يحفز تحركاتهم ، التى تبدو كأنها

بلا هدف .. الأمل فى تحرير طبقتهم وبلادهم .. وفى صيف ١٩٣٥ ، جاءت فترة عصيبة ، عندما نسفوا الجسر الوحيد القائم على نهر تاتو العظيم ، وفى هذه المنطقة ذات الممرات الصخرية الباردة والوديان النهرية الضيقة فى غرب سيزيشوان ، كان آخر ثوار الفلاحين (التايبنج) وقوامهم مائة ألف رجل بقيادة الأمير شى ـ كاى ، قد لقوا حتفهم على يد جيش مانشو الذى يقوده سينج كاو فان ، وكان شيانج كاى شيك يأمل فى الظفر بنتيجة مماثلة من وراء هجومه ، الا أن هذا الأمل لم يتحقق .. وكان على الجيش الاحمر أن يقطع ٢٠٠٠ ميل تقريبا ، وأن يحارب ضد الطبيعة على الدوام .. وعند عبور الممرات العالية فى شمال سيزيشوان .. والتى تطل ، من الغرب ، على أرض التبت المنبسطة والتى تبدو كبحر مغطى بالثلوج ، سقط آلاف من الرجال ، من شدة الاعياء ، فى الثلوج المتراكمة ، وأخيرا ، وفى ٢٠ اكتوبر سنة ١٩٣٥ ، وصل ٩٠,٠٠٠ رجل الى شمال شنسى ، الواقعة جنوبى السور العظيم ، حيث تقرر أن يبقوا هناك أياما .

وفى ٣٦٨ يوما قطع الجيش الاحمر فى زحفه ما يزيد عن ٦٠٠٠ ميل ، كان فى أكثرها يشكل طابورا طوله ٤٠ ميلا تقريبا، ولم يحملوا على ظهور حميرهم وبغالهم سوى ذخيرتهم ومدافعهم الرشاشة الخفيفة ، وكانوا يسيرون ، ويسيرون على الدوام .. وحتى كبار الضباط كانوا يمشون حفاة الأقدام وكانوا يقطعون بمعدل ١٧ ميلا فى اليوم تقريبا .. أما اذا أخذت بالرأى القائل ان فترة الزحف لم تستغرق سوى ٢٥٠ يوما ، فان المتوسط يكون ٢٥ ميلا ، وكان عليهم أن يتوقفوا باطراد ، وبلغت فترة التوقف مائة يوم ــ عندما كانت تقع مناوشات وهجمات متوالية .. ومن هذه الفترة ، انقضت خمسة وستون يوما فى غرب شزيشوان * وهذه تعادل ٤٤ يوما من أيام الراحة ، مقابل زحف قطعت فيه الجيوش ٤٤٠٠ ميل تقريبا ، بمعنى انها كانت تاخذ يوما واحدا للراحة مقابل كل مائة ميل .

وكان للزحف مغزاه السياسى ومغزاه العسكرى ، فلم يعد الشيوعيون بعد ذلك اليوم محاصرين فى قلعتهم المطوقة ، فى الجنوب ، وعلى النهر الأصفر ، كانوا يشتبكون بمواقع اليابانيين، وفى أثناء زحفهم ، اجتازوا ١٢ مقاطعة يبلغ عدد السكان فيها ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ، ونشروا دعايتهم سعيا لهدف طيب .

كان جيشنا على موعد مع القدر ، ذلك الذى أنشىء فى العطفة الكبرى للنهر الأصفر ، انه جيش بلا مدفعية وبلا عربة ميكانيكية واحدة . ولكنه يملك تشكيلة عجيبة من الأسلحة والذخيرة ، كان ثلاثة أرباعها قد استولى عليه من جنود الحكومة .. بنادق ومدافع حديثة بريطانية وتشيكية وألمانية وامريكية .. ومع هذا فقد كان الجيش الوحيد ، الذى يملك وعيا سياسيا فى الصين .. والجيش الوحيد الذى لم يكن يلقى الكراهية من الفلاحين . وكان موقعا فريدا ذلك الذى وجدت حكومة (السوفيتيات) الصينية نفسها فيه ، انه التلال الحمراء الواقعة شمال شانسى وشمال شرقى كانسو وجنوب شرقى نينجيسيا .. انه موقع رمزى لأنه المهد التاريخى للامبراطورية الصينية الذى ولد فيه الامبراطور سين شى هوانج ، منشىء السور العظيم ، منذ اثنين وعشرين قرنا ..

ولما تنقل ادجار سنو . خلال هذه المناطق ـ وكانت الأرض التى يشغلها الجيش الأحمر تبلغ فى مساحتها مثل مساحة بريطانيا او كوريا ـ كانت الحكومة المحلية تعمل بطريقة مرضية ، واقيمت صناعات بدائية فى المدن والقرى المختفة ، مثل صناعات الملح والزيت والقطن والمواد الحربية ، وكانت الحكومة الحمراء على اتصال لاسلكى مع كل جزء فى الصين .. وكانت الطرق مأمونة ومتعددةخلف الجبهة .. وكان ماوتسى تونج ، حاكم هذه الجمهورية ، يسكن كوخا صغيرا ريفيا مصنوعا من الطين ، وكانت ممتلكاته الشخصية لا تعدو ملاءتين من القطن وبذلتين رسميتين

ولم يكن له حصان خاص به ، لا بل لم يكن له حمار ، ولا حرس خاص ٠٠ ومع هذا ، ألا تفسر هذه التفصيلات الكثير من تعقيبات غير الشيوعيين ، ممن يعجزون عن الفهم والادراك ؟

وما زال هناك شيء جدير بالملاحظة ٠ وهنا نعود الى النقطة التى توقف عندها مؤقتا تاريخ الصين الرسمية ، ومؤداها أن هـذا الجيش الاحمر كان قادرا على ارغام شيانج على القيام بمقاومة حقيقية للاستعمار اليابانى ٠٠ ولعل القارىء يتذكر اعتقاله الغامض فى عام ١٩٣٦ الذى هيأ الفرصة لشائعات وتخمينات عـدة فى الصين وفى الخارج ، وفى موسكو وفى لندن ونيويورك كذلك ٠

هذا هو ما حدث ٠٠ فى المناطق الواقعة جنوبى وغربى أراضى الشيوعيين ، كان يرابط فى ذلك الحين كثيرون من القـوات المنشورية التابعة لما يسمونه جيش تونجى (أى الشمالى الشرقى) ٠٠ وكان قائدهم يدعى المارشال شيانج هسو ـ ليانج ، وهـو حاكم سابق لمنشوريا ، طرده اليابانيون . وكان القائد الأعلى الثانى فى البلاد ٠٠ وبعد أن غزا اليابانيون جيهول ، اعتبر الرجل كبش الفداء وأقصى الى أوروبا (١٩٣٣ ـ ١٩٣٤) ليدرس هنـاك ٠٠ وعندما عاد فى سنة ١٩٣٥ ، عين فى الحال قائدا لجيش توتجى، وكلف بمهمة تدمير الجيش الاحمر ، ولكنه لم ينهض بهذه المهمة، فانه ورجاله وقد نهبت بيوتهم واختطفت زوجاتهم وأطفالهم لم يكن لهم سوى رغبة واحدة ، أن يعودوا الى منشوريا ، وكان معنى هذا محاربة اليابانيين ، وكانت الحرب الأهلية الدائمة ضد الشيوعية لا تثير اهتمامهم ، واكتشف شيانج هذا كله على الفور ٠٠ وصار حتما عليه أن يذهب الى المسرح بنفسه ، وفى ٧ ديسمبر ١٩٣٦ ، هبط فى مطار سيان (سيكنج) فى جنوب غربى شنسى ، وهـو يقع على بعد متماثل قدره ١٢٥ ميلا من الجبهة اليابانيـة ، ومن الجبهة الشيوعية ٠٠ وكان غرضه هو أن يبلغ ضـباط جيش تونجى ـ وعلى وجه الدقة ـ ما كان يرجى منهم ٠٠ وفى مساء يوم

١١ ، قرر قادة الفرق خطة العمل ، لقد اعتزموا القاء القبض على شيانج ، ومعنى هذا أن ١٥٠٫٠٠٠ رجل يعلنون العصيان . كان شيانج يقيم فى فندق فى لينجتونج .. وهى بقعة تصلح لقضاء الاجازات ذات ينابيع دافئة ، وتقع على بعد عشرة أميال تقريبا خارج سيان .. وفى الساعة الخامسة صباح يوم ١٢ ، هجم جنود تونجبى ، بقيادة صن مينج شيو ، قائد حراس المارشال الثائرين ، على الفندق . وهرب شيانج من فراشه الى التلال المغطاة بالثلوج خلف الفندق ، ولكنه أسر فى الساعة السادسة صباحا وكان لا يزال مرتديا (البيجاما) .

ان هذا الاجراء - وكان الهدف الوحيد منه هو إثارة الصين الرسمية ضد اليابان - كان على الأرجح ثمرة فكرة شيوعية - لم يكن من الممكن أن يعهد بتنفيذها الى غير شيانج هسو ليانج . لقد قال لشيانج ، فى ارتباك واضح : اذا قبلت سعادتك مقترحاتنا ، فانني سأنفذ أية أوامر تصدرها سعادتك !

وفى ١٤ ديسمبر ، صعقت نانكين لدى قراءتها بلاغا رسميا من الثوار ومن القادة الحمر ، عن تعبئة ما يسمى بالجيش المناهض لليابانيين ، وكان قوامه ٢٥٠٫٠٠٠ رجل ويسيطر على مقاطعتى شينسى وكانسو ، وحاول الرجعيون اليمينيون فى حكومة نانكين ، من أمثال وزير الحربية الموالى لليابانيين هوينج شين ، أن ينظموا فى الحال حملة تأديبية ضد الجيش الجديد وحاولوا - فى الوقت نفسه - الاستيلاء على السلطة ، الا أن الفريق المعتدل الموالى للامريكيين ، بزعامة شونج من لينج و ت. ف. شوبج ، عارضهم وأبلغ نبأ الدسائس التى تبدت فى نانكين الى شيانج ، وكان هذا الفريق على قدر من الحكمة بحيث أدرك انه اذا تدخل جيش الكومنتانج ، فانه سيجد نفسه فى مركز بالغ الدقة ، وليس ثمة سبب وجيه يدفع الشيوعيين لأن يكونوا رحماء بمناهضى الثورة ، المتعطشين الى الدماء ، ومع ذلك ، فقد لقى شيانج معاملة طيبة خلال

فترة أسره ، وكان ماو ورفاقه يعلمون هذا جيدا .. وفي عشية اعلان الحرب الوطنية على اليابان رأوا حتما عليهم ألا يقتلوا الرجل الذي كان ، في الداخل وفي الخارج ، رمزا للوحدة الصينية ..

واحتفظ الشيوعيون والثوار بشيانج أسيرا لمدة أسبوعين .. ففي خلال الفترة ما بين ١٧ ديسمبر و٢٥ منه استسلم استسلاما تاما .. انه لم يوقع أية وثيقة ، ولكنه أعطى تعهدا بأنه قد انتهى وانتهت معه سياسته القائمة على الاذعان وتعهد بأنه سيقاتل اليابانيين .. وعندما أطلق سراحه .. عجل بالعودة الى نانكين ، ووعد الشيوعيون ، انقاذا لماء وجهه ، أن يقللوا من نشاطهم ضد ملاك الأراضي وأن يعترفوا بشيانج قائدا أعلى بشرط أن يحتفظوا بسيطرتهم على جيشهم الخاص وحكومتهم ، وبهذا يكون لديهم ضمان لاستقلالهم السياسي .. وسافر معه المارشال الثائر الى نانكين ليبدو هو في مظهر أسير من أسرى الحكومة .. وبعد أسبوع أو أسبوعين أطلق سراحه .. وقدم الى نانكين كذلك ضيف ثالث ، لم توجه اليه الدعوة ، وهو شو اين لاى ، كممثل للحكومة الشيوعية ..

ولأول مرة ، أعدم الجواسيس والعملاء اليابانيون ، وطردت العناصر الخائنة من الحكومة ، وانطلقت البلاد التي استشهد عدد كبير من أبنائها تحمل السلاح .. لقد استيقظ التنين الصيني .

وكان طبيعيا أن تصل أنباء الاتجاه الجديد في الصين ، ولا سيما في شنسي ، الى طوكيو ، ونحن نعرف ما أجابت به طوكيو . انه كان الجواب ذاته الذي ردوا به في عام ١٩٣١ ، لا بل أسوأ حالا .. فالأمر بالنسبة لليابان كان يحتم عليها أن تضرب آنئذ والا فلا .. وكان الوقت ملائما ، من وجهة النظر الدولية ، كانت الفاشية تنتشر باطراد في أوروبا ، وكان الاتحاد السوفييتي ، من الناحية الداخلية ، يواجه فترة دقيقة كتلك التي واجهها في عام ١٩٢٧ (نفي تروتسكي) .. وكان يواجه فترة اعدام المارشال

توتاشفسكي (يونيو ١٩٣٧) وحركات التطهير في عـام ١٩٣٦ ـ ١٩٣٧ ، التي راح ضحيتهـــا : زينوفيف وكامنييف وبوخارين وراديك وكثيرون غيرهم ٠٠ وبدت طوكيو مترددة في الظاهر ٠٠ ولكن طبيعة الأشياء في الصين ، دفعت الجيوش الى الاستـــعداد والتحرك ٠٠ ووجدت حجة مناسبة ، ومثل هذه الحجج يمكن أن توجد على الدوام ، كما يحدث عادة قبل أن يتطور الأمر الى حرب فعلية . اذا لم يكن أى الفريقين تواقا الى القتال (قارن الأحداث التي وقعت بعد ذلك بسنوات عندما كان الروس واليـــابانيون يخوضون الحرب على نهر أمور)

وفي ليلة ٧ يوليو ٠٠ كانت هناك كتيبة يابانية تقوم بمناورات في الأراضي الصينية ، وهي على حق في هذا من الناحية القانونية ، وذهبت الى وانبنــج ، وهي بقعة تبعد حوالى عشرة أميال عن غرب بكين ٠٠ وأطلقت طلقات نارية ٠٠ وزعمت طوكيـــو أن حراس السكة الحديد الصينيين هم الذين أطلقوها ٠٠ ان هذا الحادث ، الذى وقع عند جسر ماركو بولو ، كان بداية لما أســموه بالصراع الصيني الياباني ، والذى كان في الواقع أعظــم حرب في الفترة المحصورة بين عام ١٩١٨ وعام ١٩٤١ ٠٠ وفي منتصف شهر يونيو أرسل اليـــابانيون فرقا جديدة لترابط بين بكين وتينسين ٠٠ وسقطت بكين في ٢٨ يوليو ، وسقطت تينسين في اليوم التالى ٠ وهبطت الفرق اليابانية على شمال الصين مثل كلاب البحر الجائعة ٠٠ وقد ادى مقتل اثنين من البحارة اليابانيين عند المطار الحربي الصيني قرب شنغهاى الى انزال بعض القوات من السفن الحربيـة اليابانية في منتصف شهر أغسطس ، وحارب الصينيون كالاسود ، ولم يستطع الغزاة صد القوات الصينية من المدينة ، الا في بداية شهر نوفمبر ٠٠ وبعد أن القى اليابانيون بفرق جديدة في الميدان ، وبدا شيانج ، للمـــرة الثانية ، قائدا عظيمـــا ٠ وكانت خططه وتكتيكاته هي خطط الروس ضد نابليون وضد الغزاة النازيين ٠

كان يبيع الأرض ليشترى الزمن ٠٠ كان يدافع عن كل ميل من الأراضى الصينية ولكنه كان ينسحب دائما قبل أن يهزم هزيمة تامة ٠٠ وواصل اليابانيون غزوهم ٠٠ وفى ١٣ ديسمبر استولوا على نانكين وارتكبوا من الفظائع أبشعة ما يجاوز الحد المألوف ٠ وفى أيام الشتاء المظلمة ، فى أواخر شهر ديسمبر ، سقطت هانجشاو وتسينان ٠٠ وهناك نقطة صغيرة تدعو الى تسجيل المعارك بالمفصيل ٠٠ ان كل ما وقع كان داميا رهيبا ، ولا ينطبق هذا على القتال فحسب ، بل على آثاره كذلك ، ففى خلال الفترة المحصورة بين عام ١٩٣٧ وعام ١٩٣٩ ، غادر ٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ صينى وعائلاتهم بيوتهم وفروا الى داخل البلاد ، ان أفعال اليابان فى الصين لايمكن أن تروى ببساطة ، انها تحتاج الى مكتبة لتسجل هذه المظالم ٠

وفى اقل من ثلاث سنوات ، احتل اليابانيون أقصى مايستطيعون احتلاله ، بمعني انهم احتلوا جميع مناطق شمال شرقى الصين الواقعة شرقى النهر الاصفر ، ووادى يانج تسى ، حتى ايشانج ، والشاطىء الصينى كله ، وبمعنى آخر ، احتلوا جميع البلاد الواقعة الى ما دون ألف قدم تحت سطح البحر ٠٠ وجميع مزارع القطن ، وجميع الموانى وجميع المصانع تقريبا ٠٠ أى انهم احتلوا أرضا تضم ٢٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة ٠٠ ومع هذا ، فان الصين الحرة لم تستسلم ٠٠ بالرغم من أنها ، فى سنة ١٩٤٠ ، لم تكن تملك مصنعا واحدا للبنادق ، ولم يكن عندها سوى آلايين مزودين بالدبابات ، من النوع الخطبف ، وفى عام ١٩٣٧ ذهل العالم لليقظة المعنوية التى أبدتها الامبراطورية ، التى كانت تحكم حكما سيئا ٠٠ ومن شونج كينج ، على يانجتسى حيث أقيمت الحكومة فى اكتوبر ١٩٣٧ ، شن شيانج حربا مريرة من حروب التحرير ٠٠ لقد زج اليابانيون بأنفسهم فى عش دبور حقيقى ٠٠ وظهر بوضوح على الفور أن كل ما يستطيعون أن يفعلوه هو أن يحتلوا المدن والطرق الرئيسية احتلالا أبديا ، بمعنى أن يحتلوا

عشر الصين ، باستثناء منشوريا ٠٠ وكانت جميع الاراضى الواقعة خلف الخطوط الرحبة الممتدة من منغوليا الى الهند الصينيه منطقة نشاط لرجال المقاومة الصينية ٠٠ كان الفلاحون يعملون فى حقولهم نهارا وينقلبون فى الليل جنودا ومخربين وكتائب تلقى القنابل . وكان لعدد كبير من هؤلاء المقاتلين ضباط شيوعيون ، درسوا مهنتهم فى أثناء حرب العصابات ضد شيانج ، كما درسوا لاغراض أخرى ٠٠ وفى الأراضى التى كان يحتلها اليابانيون ، وهى تقع فى الأغلب وراء الجبهة ، كانت هناك أقاليم بأسرها تحكم بوصفها جمهوريات سوفيتية صغيرة • قسمت فيها المزارع الكبرى ، باستثناء المزارع التى كان أصحابها يشتركون فى الكفاح الوطنى• وقد تعلم الفلاحون ، وهم غالبا أميون ، وكذلك رجال المقاومة وزوجاتهم وأطفالهم القراءة والكتابة . كما انتشرت بينهم الأفكار الديمقراطية والشيوعية ، الى أقصى حد ممكن ، ولم تكن هناك تضحية ، يضن بها هذا الشعب الذى استيقظ • وكان من الحوادث المألوفة أن تتعطل السكك الحديدية فى الأراضى التى يحتلها اليابانيون ، بل كان هناك ما هو أكثر من ذلك . كانت الخطوط الحديدية ، التى لا تقدر بثمن ، تنقل بعيدا الى أماكن تبعد مئات الأميال خلف الجبهة ، لتبنى مكانها خطوط جديدة •

وفى أغسطس سنة ١٩٣٧ ، عندما كان الاسطول اليابانى يحاصر ساحل الصين جميعه ، وقع ميثاق عدم اعتداء مع الاتحاد السوفييتى ، وترتب على هذا أن كميات من الأسلحة والذخيرة قد أرسلت من المصانع الروسية الى الجبهة فى الصين ٠٠ كما أرسلت الديمقراطيات الغربية قدرا لبس بالقليل من الأسلحة الى الصين الحرة . ولكنها لم ترسل كميات ذات شأن الا فى الفترة المحصورة بين عام ١٩٤٠ وعام ١٩٤٥ ٠٠ انها صفحة سوداء فى التاريخ ٠٠ فلا أوروبا ولا أمريكا حاولت أن تكون البادئة بوضع أقل العقبات شأنا فى طريق الحكام الفاشيين فى طوكيو ، رغم ما كانت تدركه

من خطر .. وأسوأ من هذا ، أنه حتى اليوم الذى وقع فيه الهجوم على بيرل هاربور ، كان الأمريكيون يرسلون النفط ووقودالمحركات الى اليابان ..

وفى ٨ ديسمبر سنة ١٩٤١ عندما أعلنت هولندا وبريطانيا والولايات المتحدة الحرب على اليابان ، كان الصينيون قد قضوا عشر سنوات وهم يضيقون الخناق على الارهاب اليابانى ، بحيث لا يبقون أمامه مهربا .. أما وقد صار من الممكن فى سنة ١٩٤٥ صد اليابانيين على أعقابهم الى جزرهم ، فلم يكن هذا هو أقل ثمار المقاومة البطولية للجماهير الصينية .

٣

الفلبين وأندونيسيا

عندما وجه اللوم الى المؤرخ البريطاني الشهير « سيلى » لأنه لم يجعل كتبه مسلية ، قال : لا أستطيع أن أجعل التاريخ مسليا أكثر مما هو . فاذا عجز مؤرخ آسيا الحديثة عن اصطناع التسلية، فان الخطأ يقع عليه هو لا على مادته . ان سلسلة العمليات التي هيأت لآسيا، وهي تضم نصف سكان العالم ، السبيل الشاق ، بل السبيل النبيل الى الحرية ، السبيل الذى سلكته جميع دولها ، من تركيا الى اليابان ، ومن سيبريا الى اندونيسيا ، تجعلنا نتساءل : هل هناك قصة أكثر اثارة من هذه القصة ؟ ان ثمة ثورات وحروب عصابات وأزمات اقتصادية وحروبا عالمية وحالات من النفى والتشريد واضرابات وآلافا من احكام الاعدام تترك طابعها على ذلك السبيل . وتؤلف جزءا من تطور آسيا وتشكيلها .

ولنتجه أولا الى الدولتين القائمتين على الجزر ، فى جنوب شرقى آسيا . الفلبين (جمهورية فيليبناس اليوم) واندونيسيا ، وهى الجمهورية الاندونيسية الآن . وكانت الاولى مستعمرة سابقة للولايات المتحدة ، أما الثانية فكانت مستعمرة سابقة لهولندا ،وهى من اقدم الدول الراسمالية ، كما كانت امريكا من أغنى هذه الدول .

وهناك الكثير من الروابط التى تجمع بين اندونيسيا والفلبين ، سواء من الناحية التاريخية أو غيرها ، وللاولى ٢٠ الف جزيرة كبيرة وصغيرة ، وللثانية ٧٠٠٠ جزيرة . وفى كل منهما سكان ملاويون ، وكانت كلتاهما فى العصور الوسطى امبراطوريتين

تجمعان بين طابع الهند والملايو . وصارت كلتاهما ، منذ عام ١٦٠٠ هدفا للدول الغربية ، ولاسيما هولندا واسبانيا . ولم تتعرض دول اسيوية اخرى لمثل ما تعرضت له هاتان الدولتان من سيطرة غربية ، ظلت قائمة فترة طويلة ، يضاف الى هذا ، ان اندونيسيا والفلبين والملايو صارت ، فى العصر الحديث ، اهم المستعمرات الزراعية ، بالنسبة للغرب (للسكر والتبغ) كما صارت اوضا طيبة لزراعة جوز الهند . وفى الاعوام المحصورة بين ١٩٤٠ و١٩٤٥ انتجت هاتان لمجموعتان من الجزر أربعة اخماس الانتـــاج العالمى من زيت النخيل . ويعيش اكثر من نصف عدد السكان فى كلتيهما فوق جزيرة واحدة مزدحمة . ونسبة المواليد مرتفعة ، بصورة تفوق أى بلد آخر فى آسيا . ولقد وجهنا النظر اكثر من مرة الى هذه الزيادة فى السكان بوصفها عاملا ذا اهمية عظمى . ونود ان نكرر أن من لا يعترف بسبب هذه الظاهرة ونتيجتها ، لا يستطيع ان يدرك وجهة نظرنا فيما يتعلق بالكثير من قضايا عصره . ففى سنة ١٨٠٠ كان سكان الفلبـــين ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ ، وكان عـــدد الاندونيسيين ٨٫٠٠٠٫٠٠٠ تقريبا . أما اليوم فهم يبلغـــون ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ و ٨٠٫٠٠٠٫٠٠٠ على التوالى ، وهــذه الزيادة لا تتفوق عليها سوى الزيادة فى البلاد غير المأهولة التى تدعو الــى الهجرة ، مثل الولايات المتحدة واستراليا . ففى عام ١٨٠٠ ، كان عدد الامريكيين ٧٫٠٠٠٫٠٠٠ . أما فى عام ١٩٥٠ فقد أصبحـوا اكثر من ١٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ، وفى استراليا هبط ١٠٠٠ بريطانى فى خليج بوتنى فى عام ١٧٨٨ ، فصــــاروا فى عام ١٩٥٠ حوالى ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ من السكان البيض ، وفى الفترة ذاتها ارتفع عـدد سكان بريطانيـــا من ٩٫٠٠٠٫٠٠٠ فقط الى ٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ . وارتفع عدد سكان اوروبا من ٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ الى ٥٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ وارتفع عدد سـكان اليابان من ٢٥٫٠٠٠٫٠٠٠ الى ٨٠٫٠٠٠٫٠٠٠

لم يطلب الهولنديون شيئا من الاندونيسيين فى أول الامر سوى

جوز الطيب والفلفل ، ولم يحاولوا خلع الصفة الاوربيـــة على الثقافة الوطنية ، اما الاسبان ، فكانوا على عكسهم . فقد فعلوا هنا مثلما فعلوا فى أمريكا الجنوبية ووسطها ، اذ حاولوا انينشروا المدنية الاسبانية بين الفليبيين ، اللغة الاسبانية والكثلكة الاسبانية والاقتصاد الزراعى الاقطاعى الاسبانى ، وتسعة أعشار الفلبينيين الآن هم من الكاثوليك الرومانيين ، واكثـــر من خمسة فى المائة مسلمون ، وغالبيتهم من ميندانو وسولو ، أما الخمسة فى المـائة الباقون هم بروتستانت ، ممن حولهم المبشرون الامريكيـــون فى الفترة المعاصرة ، أما فيما يتعلق باللغة ، فان اللغة الامريكية حلت ، فى الاكثر ، محل الاسبانية ، وهناك ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ فليبينى تقريبـا يتكلمون الانجليزية ، وهذه نسبة مئوية تفوق اية نسبه فى اية دولة اخرى فى آسيا ، وثمة ٤٠٠٫٠٠٠ يتكلمون الاسبانية . اما الاسماء الجغرافية واسماء الاشخاص فقد بقيت ، من الناحية الاخرى ، اسبانية ، وما زالت الجمهورية تحافظ على اسم الجزر ، الـذى اخذته عن فيليب الثانى . وأبقى الفيليبينيون ، من الناحيـــة الاجتماعية ، على الاسبان ، فى طبقة النبلاء وخدامهم الذين يسمونهم « كاسيك » ، والفارق فى الجنس بين الزراع الوطنيين وبين ملاك الاراضى ، المنحدرين من أصل أسبانى ، وأولئك الذين اختلطت فيهم دماء الفريقين ، قد اتسع نطاقه بفضل فارق اجتمـــاعى واقتصادى . وهنا نلمح ظاهرة عامة ، ان فارق الجنس يقــل فى اهميته عما يعتقد الكثيرون ، ولا يعتبر الصراع بسبب التفرقة بين الاجناس امرا ذا خطر الا عند ما يصبح انعكاســـا لصراع اقتصادى واجتماعى .

وفى ظل الحكم الامريكى ، ظل النظام الاقطاعى للبلاد باقيا دون تغيير . ولم تقسم الاقطاعات الكبيرة ، وبقيت الاصلاحات الزراعية القليلة ، التى ادخلت مثلا فى أثناء الازمة الاقتصادية فى ١٩٣٣ ضعيفة الاثر . وفى بلاد مثل أندونيسيا ، شغل الهولنديون انفسهم

بالاصلاح الزراعى ، على نطاق واسع ، ولم يكن هذا هو الحال بالنسبة للفلبين . ولقد حكم الامريكيون البلاد ، لا بوصفها مستعمرة كما يستفاد من المعنى الاوربى . ولكن بوصفهـا نوعا من المزارع المستقلة ، بمعنى ان الحكم لم يكن حكم المسئولين الامريكيين بل حكم البورجوازية الوطنية . المتمثلة فى الزراع الاغنيـاء وملاك الارضى الكبيرة ، ومعهم بوليسهم الخاص المأجور ، ولم يكن الزراع يتوقعون من مثل هؤلاء الحكام شيئا ، فى واقع الأمر . ولم تصطبغ الزراعة الوطنية بالصبغة العصرية الحديثة حقا بالمعنى الاقتصادى المحض . حقيقة ان مساحات شاسعة من الاراضى قد استصلحت للزراعة شيئا فشيئا ، ٠٠٠ر٠٠٠ر٧ فدان فى عـام ١٩١٣، و ٠٠٠ر٠٠٠ر١٧ فى عام ١٩٣٩ . ولكن بالرغم من زيادة عـدد السكان ظل الاقتصاد الريفى بدائيا ، وكان محصول الفدان من الارز قليلا جدا بالقياس الى الدول الاسيوية الاخرى . وفى عام ١٩٣٩ ، كان نصف الاراضى يزرع أرزا وربعها يزرع بأشجار جوز الهند . أما المزارع الحديثة التى تنتج السكر ونبات القنب . فكانت تشغل ثمن الاراضى الزراعية . وكان السكر ومنتجات النخيل والقنب والتبغ تصدر ، ولا سيما الى الولايات المتحدة . وهذا ما عزز العلاقات مع أمريكا واثر على الميزان التجارى ، ولكن اغلبية الزراع والعمال فى الاراضى لم تحصل على اية فائدة . وكان ثلثا الفلاحين يملكون مزارع تقل مساحتها عن ثمانية افدنة وكان نصفهم يملك مزارع تقل عن أربعة افدنة .

وقد هبطت نسبة الفلاحين الذين يملكون ارضا خاصة ، فى اثناء الازمة ، وفى عام ١٩٣٨ ، كان كبار ملاك الاراضى والرأسماليين فى المدن يملكون ثلث الارض . وكان الايجار يبلغ نصف المحصول .

واولئك الذين صاروا اثرياء هم الامريكيون والأسبان ، من زراعة قصب السكر ونباتات القنب ، والمناجم ، ومعـامل تكرير زيت النخيل ، واثرى الصينيون من النشا ومطاحن الارز ، وكذلك

صغار التجار ، وثلثاهم من الصينيين واليابانيين . وسيطر الاجانب على التجارة الخارجية . ولم تنشىء الدول الاستعمارية اية صناعة حديثة ذات شأن . وكانت المصانع ، اذا ما وجدت ، تخص الاجانب وكان اجر العمال الوطنيين منخفضا الى حد كبير .

وكان الكتاب الهولنديون كثيرا ما يقولون : انظروا الآن الى ما استثمرناه فى جزر الهند ، والى ما حققناه فى مجال الفنون التطبيقية والصحة والمدنية ، فما الذى عاد الينا فى الحقيقة من هذا ؟ انه شىء قليل حقا . وكانوا يعززون وجهات نظرهم بالطريقة العلمية السليمة وبالارقام والجداول الاحصائية . وكان الوطنيون يتعرضون للوم بحجة نقص ادراكهم ، ولكى تتهيأ لهم فرصة الادراك والفهم كانوا ينفون الى نهر (ديجول) والى الجزر النائية .

وقد انتهى كثيرون من الامريكيين الى نتيجة مماثلة ، وان كانت تختلف شيئا ما ، الا انها تقوم على هذا التفكير الاساسى ذاته ، ومؤداها : لقد استثمرنا نصف مليار من الدولارات فى الفلبين ، وهذا ما يؤلف واحد فى المائة من الاستثمارات الامريكية فى الخارج . والتجارة بيننا وبين هذه الجزر ليست الا ٣ – ٤ فى المائة من مجمل تجارتنا الخارجية . ويترتب على هذا اننا لم نكسب شيئا من الفليبنبين ، وهم فى الواقع عبء علينا »

وليس من المفيد كثيرا أن نناقش الى اى مدى يمكن ان تسمى السياسة الاقتصادية الامريكية فى الفلبين استقلالا ، اننا سنعالج ما حدث ، فى الواقع ، فى الفلبين ، ولا سيما فى مجال اقتصادياتها معالجة بعيدة عن العاطفة ودون جدل اقتصادى .

ان الحكم الامريكى قد سد الطريق أمام التطور السياسى والتمدين الفنى للبلاد . لقد عزز مركز المستغل الاقتصادى ومالك الارض الاقطاعى ، وساعد على جعلهم من الاغنياء بدلا من

الاهتمام بمركز الفلاحين والزراع . وهنا نلتقى بسخرية التاريخ مرة ثانية . ان الامريكيين الديمقراطيين قد ارغموا فى كل مكان فى آسيا على مناصرة الاقطاع والرجعية . قارن الصين وكوريا والهند الصينية وايران والاردن والجزيرة العربية .

لقد عملت السياسة الاقتصادية الامريكية على ابقاء الاقتصاد الزراعى فى الفلبين وثيق الصلة بأصله واوضاعه . وفى سنة ١٩٣٦، كان اكثر من ثلاثة أرباع تجارة الفلبين ، فيما وراء البحار ، يذهب الى الولايات المتحدة يقابل هذا ٢٥ فى المائة منها تقريبا ، بين عام ١٨٨٠ و عام ١٩١٠ .

وأخيرا ، كان للهيئات المهتمة اقتصاديا بالفلبين ، فى واشنطون، تأثير كبير جدا . وبعد تحرر البلاد (فى ٤ يوليو سنة ١٩٤٦) استردت الولايات المتحدة مركزها الاقتصادى الممتاز فى الجزر ، ومنحت ، بالاضافة الى هذا ، قواعد عسكرية متعددة .

وهنا يكمن التناقض فيما يتعلق بالحرية الفلبينية . لقد كانت الفلبين هى البلاد الوحيدة ، المستعمرة ، والتى حصلت على حكم ذاتى صحيح شيئا ما ، وتم هذا فى موعد مبكر . لقد حددت واشنطون عام ١٩٣٥ كموعد نهائى للاستقلال . ومع هذا فان الفلبين ، عند تحررها ، كانت أقل حرية من الدول الاخرى وهذا يمكن تفسيره بسهولة بالاشارة الى ان هذا الاتجاه هو نقطة اساسية فى سيطرة الولايات المتحدة على الباسفيكى (فورموزا واليابان وكوريا) ولكن هذا لايبدو فى اعيننا انه السبب الوحيد لما تتمتع به الفلبين من حرية منقوصة . ان الامريكيين ، فى تاريخهم كله لم يكونوا اطلاقا مستعمرين فى الصميم ، وذلك لسبب واحد يرجع الى تاريخهم الماضى ، الم يسحب ملك بريطانيا فى عام ١٧٨٣ قواته من مستعمرة امريكا الثائرة ؟ ان هذه العقلية ، المناهضة للاستعمار ، هى الطابع المميز للحزب الديمقراطى بصفة خاصة ؛ اما الحزب الامريكى الكبير الآخر ، وهم الجمهوريون ، اذ يستمدون

قوتهم من الدوائر الصناعية والراسمالية ، فانهم اكثر ميـلا الى التوسع ، فمثلا فى عام ١٨٩٣ ، نظم الزراع والتجار الامريكيون فى مملكة هاواى ، التى تزرع قصب السكر ، ثورة وطنية ، ضد الملكة ليبلوكالانى • وقد طلبوا فى خلالها الحماية من الولايات المتحـدة بطريقة مراوغة ، بمعنى أنهم طلبـــوا ضم بلادهم • ورفضت الحكومة الديمقراطية برياسة كليفلاند الطلب (١٨٩٣-١٩٩٧) وعندما احتل اليابانيون الفلبين فى عام ١٨٩٨ ، بالاضافة الى هاواى وكوبا ، احتج كثيرون من الامريكيين ، من بينهم مارك توين ، على ما اسموه بالاجراء غـــير الامريكى ، الذى يعـــد سبة لمبادىء الديمقراطية • واذا استثنينا بعض الجـزر ذات الاهميــــة الاستراتيجية ، فان أمريكا لاتملك فى الوقت الحـــاضر ســـوى مستعمرتين حقيقيتين ، بالمعنى الاوروبى للكلمة وهما : بورتوريكو (١٨٩٨) ومنطقة قناة بناما (١٩٠٣) ولا تضـــم جميـــع ممتلكاتها ، فيما وراء البحار ، سوى ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ نسمة • وهذا ما يقل كثيرا عن عدد سكان المستعمرات البريطانية (لعام ١٩٥٠) وهو ٧٥ر٠٠٠ر٠٠٠ والمستعمرات الفرنسية وهو ٥١ر٠٠٠ر٠٠٠ واقل كثـــيرا عن المستعمرات البلجيكية وهو ١٥ر٠٠٠ر٠٠٠ والمستعمرات البرتغالية وهو ١٢ر٠٠٠ر٠٠٠ •

والتزمت الولايات المتحدة سياسة العزلة فى القـرن التاسع عشرة • بسبب مخاوفها من الاشتباك فى مشكلات ، فى الخارج ، وفى ذلك القرن لم يكن ثلاثة أرباع البلاد قد استقل بعد، ٤ر٠٠٠ر٠٠٠ ميل مربع) ، ويبدأ التوسع الامريكى ، فيما وراء البحار ، فى الفترة ما بين عام ١٩٠٠ و ١٩١٨ ، وكان -على نقيض التوسع الامريكى- فى اول الامر ، ثمرة للاستعمار المالى والاقتصادى • ويسمى فى العادة ، استعمار الدولار • ومن ناحية المبدا ، فالولايات المتحدة لاتضم اليها بلادا • انها تقوم بغزو اقتصادى ، انهـا تحـاول استدراج الدول الى امبراطوريتها المالية ، وذلك بضم الطبقـــة

البورجوازية والمثقفين الى تلك الامبراطورية اقتصاديا ، وكانت السبب فى كثير من الثورات فى امريكا الجنوبية ووسطها ، لا سيما فى البلاد التى يكون هدف الامبراطورية فيها الحلول محل راس المال البريطانى .

وبفضل تأييد امريكا ، ازدادت الطبقة الارستقراطية المنحدرة من أصل اسبانى فى الفلبين ثراء ، وازداد كبار ملاك الاراضى غنى وتعز زمركزهم ، وتمتعوا فى داخل البلاد بالحرية الى حد كبير نسبيا ، وكان هذا بمثابة الصمام الفعال الذى يتحكم فى أى احساس ثورى بين الطبقات الحاكمة الوطنية وازداد الاثر من جراء الخوف المتصل ، من ثورة الفلاحين ، وفى هذا المعنى يمكن أن تقارن الفلبين بالصين فى عام ١٩٤٥ .

وسندرس الآن التاريخ الحقيقى لسياسة الفلبين ، بين عام ١٩١٨ وعام ١٩٤١ ، وهى عبارة عن حكم ذاتى محدود يرجع تاريخه الى عام ١٩٠٧ ، ان قانون جونز الصادر فى أغسطس سنة ١٩١٦ ، قد كفل للمستعمرة حكما ذاتيا على أساس عريض ، حتى ولو كانت اغلبية الزراع والعمال الاميين فى البلاد ، قد حرمت من مزاياه . وتأييدا لهذا ، فسر الحاكم الديمقراطى « هاريسون » القانون بمعنى ليبرالى واضح . والدليل على هذا حقائق مؤداها ان الموظفين المدنيين كانوا يختارون من بين الفلبينيين ، شيئا فشيئا ، وأن فرقة فلبينية (١٩١٨) ضمت الى الجيش الامريكى، وانه تقرر الاعتراف باللغة الاسبانية لغة رسمية ثانية ، كما أن ٤٠ فليبينيا زاروا واشنطون فى مايو سنة ١٩١٩ . وعقب هذا ، طالب عما نويل لويس كيزون رئيس حكومة الفلبين وزعيم « بارتيدو ناسيوناليستا » (١٨٧٨ – ١٩١٤) بالحرية الحقيقية كنتيجة صريحة لاعلان الحكومة الامريكية فى اثناء الحرب ، وحصل كيزون ورفاقه على أجوبة مطاطة . وفى الوقت نفسه ، عاد الجمهوريون الى الحكم (١٩٢١ – ١٩٢٣) ، وعاد البحارة الامريكيون من

جديد ، يطوفون بالمدن فى كوبا ونيكاراجوا وهايتى وغيرها من بلاد امريكا الوسطى ، وهبت ريح استعمارية من الطراز العتيق على الفلبين ، وجاء فى تقرير رسمى : ان الاستقلال العاجل لن يكون سوى خيانة للفلبين ، ومن واجب حكومة واشنطون أن تدرك أنه ينبغى اج يسمح فى أى ظروف بقيام حالة فى الجـــزر يكـــون من شانها القاء مسئولية على كاهل الولايات المتحدة دون أن تكون فى يدها السلطة اللازمة لمعالجة تلك الحالة • وهذه الفقرة مقتبسة من تقرير رسمى فى عام ١٩٢١ • واضـــــاف كتاب من كولدج (الرئيس الجمهورى للولايات المتحدة من ١٩٢٣ – ١٩٢٩) : ان الشعب الفلبينى ليست له تجربة كافية ، ولم يبلغ مستوى العيش الذى يمكنه من حمل العبء الذى يضعه الاستقلال على كواهله .

وبناء على هذا ، نمت الحركة الوطنية بطريقة أسرع من نمـــو قصب السكر • يقول كيزون فى عبارة كلاسيكية : اننا نفضل ان نحكم انفسنا فى الجحيم ، على ان يحكمنا غيرنا فى الجنة • ومـع هذا ، فلم يكن الامريكيون على استعداد لمنح ما يطالب به الحزب الوطنى « باريدووناسيوناليستا » • وذهب كثيرون مرة ثانيـة الى واشنطون ولكن دون طائل ، كما ذهب تدخل الحكومة الفلبينية سدى . لقد طلبت فى عام ١٩٢٦ اجراء استفتاء على الاستقلال ، غير أن الحاكم رفض السماح باجراء الاستفتاء . ولم يكن من الامانة ان يقول هوفر ، خليفة كولدج فى الرياسة (١٩٢٩ – ١٩٣٣) : لن تظفر الجـرز بحريتها السياسية الا بعـد أن تحقق حريتهــا الاقتصادية .

الا ان الامور فى عام ١٩٣٣ اتخذت اتجاها جـــــديدا جديرا بالاعتبار ، بفضل قانون (هيرهاوز كاتنج) اعلنت الولايات المتحدة انه ابتداء من عام ١٩٤٥ ، تصير الجزر مستقلة وذات سيادة قطعا. فما الذى أدى الى هذا التحول ؟ ولماذا هذا التغير فى السياســة الامريكية ؟ هل صورنا الاستعمار فى الوان داكنة جدا ؟ هل وضعت

المبادىء الديمقراطية والاتجاهات الى العزلة العراقيل فى طريق التوسع الراسمالى ؟ هل نبذت الولايات المتحدة قوانينها التاريخية بشأن الاستعمار وتطوعت بأن تجعل مستعمرة من مستعمراتها حرة ؟ واسفاه .. ان هذه الاسئلة لم تعد سوى أسئلة تتعلق بالبلاغة . ان الرد عليها لا بد وان يكون سلبيا .

انهم كانوا يعنون صراحة الحرية التى يتحدثون عنها ، فلماذا رفضت حكومة كيزون أن تصدق على القانون ؟ ولماذا اختفى القانون ببساطة عن الانظار فى محفوظات وزارة الخارجية (الامريكية) ؟ ماذا وراء هذا كله ؟ أولا .. لقد تضمن القانون بعض فقرات تتناول القواعد العسكرية والبحرية الامريكية وانتهاكها للسيادة . وثانيا .. لقد ارسى القانون العلاقات التجارية بين البلدين على أساس جديد ، وفرض على الولايات المتحدة ان ترفع رسوم الاستيراد عن السكر وزيت النخيل والقنب ، المستورد من الفلبين، وكان الاتجار فى هذه السلع حرا حتى تلك اللحظة . ومن وجهة النظر القانونية الفنية لا تتيسر هذه التعديلات الا اذا كانت الفلبين مستقلة عن الولايات المتحدة . ان هذا يهيىء ثلاثة ارباع الحجج التى على أساسها منحت أمريكا للفلبين حريتها .

وقد وجدت أمريكا نفسها فى عام ١٩٣٣ ، كما هو معروف ، فى اسوا مرحلة من مراحل الازمة الاقتصادية الكبرى . وقد أصيبت جماعات معينة بضرر بالغ ، من جراء السماح للمنتجات الفلبينية بدخول البلاد دون قيد ، ومن هذه الجماعات :زراع البنجر وزراع القطن وبارونات قصب السكر الامريكيون فى كوبا وهاواى . وكان كثيرون من الامريكيون يحبذون استقلال الفلبين لتتيسر السيطرة على المنافسة الفلبينية عن طريق الجمارك ، وفى الوقت نفسه ، لم تكن الجزر ولا سيما أصحاب الاراضى وزراعها ، براغبة فى حرية « صنعت فى الولايات المتحدة » ، وهذا هو التناقض الظاهرى الشائق .

وفى ٤ مارس سنة ١٩٣٣ صار فرانكلين ديلانو روزفلت رئيسا للجمهورية (١٩٣٣ ــ ١٩٤٠) وكانت مهمته ان يعالج شبح الازمة الاقتصادية . واتخذت سياسة امريكا الخارجية اتجاها تقدميا أكثر من ذى قبل ، وفى مارس سنة ١٩٣٤ ، تمت الموافقة على قانون تايدنجز ماكدووفى ، وهو المعروف عامة باسم « تصريح استقلال الفلبين » وهو صورة طبق الاصل للقانون الصادر فى عام ١٩٣٣ ولكنه أكثر تحررا ، وتقرر أن تسحب القواعد العسكرية الامريكية عندما يتحقق الاستقلال فى النهاية فى عام ١٩٤٦.

أما الترتيبات الخاصة بالقواعد فسوف تتخذ فى موعد معين ، وسمح لثلاثة أرباع صادرات الفلبين بدخول أمريكا دون رسوم ، وفى سنة ١٩٤٠ تقرر الغاء الرسوم التى كان معمولا بها وقتذاك . وبدأ القانون فى نظر الفلبين تعبيرا عادلا عن نوايا روزوفلت الطيبة ومشاعره الديمقراطية . ومن ثم قبل كيزون وحكومته ــ فى غير حماسة ــ هذا الوضع الشبيه بالاستقلال ، للفلبين .

وفى مايو سنة ١٩٣٠ حصل الفلبينيون على دستورهم ، وصار كيزون رئيسا للجمهورية (١٩٣٥ ــ ١٩٤١) نتيجة للانتخابات التى جرت فى سبتمبر . وفى ١٥ نوفمبر حصلت الفلبين على اسمها الرسمى « حكومة الكومنولث للفلبين » وباستثناء السيطرة على العلاقات الخارجية التى تعنى الاستقلال ، ظلت شئون الدفاع والهجرة (هجرة الامريكيين) والمالية والاقتصاد مرتبطة بالولايات المتحدة .

وبالاختصار كان الوضع الجديد وضع محمية من المحميات . ولكن السيطرة المؤقتة للامريكيين ، فى نظر الفلبين ، لم تكن تمهيدا للاستعمار كما كان الحال فى دول أخرى ، فى آسيا وافريقيا ، ففى ٤ يوليو سنة ١٩٤٦ ، وبناء على نص القانون على الاقل ، كان مقررا ان تصير الفلبين تلقائيا دولة ذات سيادة .

وحكم كيزون « وبارتيدوناسيوناليستا » بنفس الطريقة التى

حكم بها شيانج كاى شيك بمعنى أنهم لم يحكموا حكما ديمقراطيا خالصة • كان البورجوازيون فى مانيلا وكبار ملاك الاراضى هم اعمدة الحكومة . ولم تكن الانتخابات حرة حقا ، وحرم منها صغار الزراع، وهم نصف السكان ، باعتبارهم اميين .

وظلت المقاومة متصلة . ويرجع تاريخ الحركات الاشتراكية والشيوعية الهامة الى سنوات الازمة وهى السنوات التى ثار فيها الزراع فى آسيا كلها • وعقب اخماد ثورة تايوونج فى شمال لوزون (١٩٣١) والاضرابات التى وقعت فى ايلويلو ومانيلا ، فر عـــدد من زعماء الجناح اليسارى الى اليابان وكان من بينهم الاشتراكى بنينـــو راموسى • وكانت ثورة السكداليستاس ، المريرة الدامية فى مانيلا المجاورة (مايو ١٩٣٠) بمثابة فترة حرجة دقيقة ، فقد كانت لوزون كلها تشتعل .

وفى خلال هذه الفترة الفت الاحزاب المعارضة لكيزون جبهة متحدة شبيهة بحزب تاكين فى بورما والاحزاب المناهضة للفاشية فى فرنسا واسبانيا • وكانت تضم الاجويتالديست والاشتراكيين الذين يسمون السكدليسا (وزعماؤهم هم راموس وبيدورو واباد سانتوس) والشيوعيين (بزعامة كريستانتو ايفاجيلسنا ولويس تاروتس وآخرين) .

وكان تاليف هذه الجبهة عاملا ذا شأن ، ولا سيما فى لوزون . وفى اقليم بامبـــانجا ، حيث كان سبع الفلاحين فقط هم الذين يملكون ارضا ، كان ثلث العمد جميعهم اشتراكيين . وظل الحزب الوطنى « بارتيدوناليستا » اكبر الاحزاب السياسية • الا ان الرغبة فى الاستقلال الحقيقى ومقاومة اليسار لحكومة كيزون غير الديمقراطية دفعت الرجل الى السفر الى واشنطون ثانية ليطلب تقديم الموعد الذى يعلن فيه الاستقلال .

وصار خطر الغزو اليابانى ماثلا للعيان ، اثر حادث بكين (صيف ١٩٣٧) ، وعدل كيزون وروزفلت وجها تنظرهما . وبدا للكثيرين

من اعضاء حزب بارتيدو ناسيوناليسنا ان « وضع الدومينيون » هو الدفاع الوحيد ، الذى يعول عليه ، ضد الاستعمار اليابانى ». وبينما كانت المدن فى الصين تسقط ، الواحدة تلو الاخرى ، فى ايدى اليابانيين ، عين دوجلاس مكارثر قائدا اعلى للجيش الفلبينى وبدت الفلبين فى اعين الامريكيين لا بوصفها مزرعة امريكية فحسب بل كحصن ضد مطامع اليابان الاستعمارية . ولئن تتغير العوامل الجغرافية كما هو الحال دائما . انما الذى تغير ، هو مغزى التطور التاريخى فى نظرهم .

ان ثراء بلد استوائى يثير المطامع ، ومن ثم فان رأس المال الاوروبى .. وقد اجتذبته الثروة الطبيعية ـ يتدفق ويستفيد من الامكانيات المهيأة له . واندونيسيا هى المثل الكلاسيكى لمستعمرة أسيوية . ان الاستعمار الاوروبى لآسيا ،لم يكن معناه غزو حضارة اجنبية وغزو الاوروبيين كافراد فحسب ، بل كان معناه فوق كل هذا ، مجيىء نظام اقتصادى اجنبى أى الراسمالية الحديثة الى بلد زراعى صرف . ان الربح هو الدافع الحقيقى وراء أى استعمار .

وقبل ان نتحدث عن تاريخ اندونيسيا فيما بين الحربين العالميتين ، نرى لزاما علينا ان نوضح فى ايجاز الاحوال الاقتصادية. ان ثلثى عدد السكان يعيشون فى جاوة ، وتبلغ مساحتها اربعة امثال مساحة هولندا ولكنها لا تحتل الا ٧ فى المائة من مساحة البلاد كلها . وارتفع عدد سكان مجموعة الجزر من ٨٫٠٠٠٫٠٠٠ فى سنة ١٨١٠ الى ٨٠٫٠٠٠٫٠٠٠ اليوم الا ان عدد سكان جاوة ارتفع من ٢٩٫٠٠٠٫٠٠٠ فى سنة ١٩٠٠ الى ٢٨٫٠٠٠٫٠٠٠ فى سنة ١٩٤٠ ، أى بزيادة قدرها فى المتوسط ٦٠٠٫٠٠٠ فى السنة او ١٧٠٠ فى اليوم . ولقد حدثت فى الواقع هجرة من جاوة . وفى عام ١٩٤٠ ، كان هناك ٢٠٠٫٠٠٠ يابانى يعيشون فى الجزر المجاورة ؛ بينما كان ٨٠٠٫٠٠٠ يعيشون ، هنا وهناك ، خارج جاوة ، وكان

اغلبهم يعملون عمالا زراعيين فى سومطرة ، وكان منهم ٣٥٠٠٠ر فى سوينام • وكانت الزيادة فى عددالسكان ، كما هو الحال فى البلاد الاسيوية الاخرى ، نتيجة لارتقاء الوسائل الصحية والتقدم التكنولوجى الحديث ، كما كانت نتيجة لارتفاع نسبة المواليد بصفة مستمرة (فى عام ١٩٤٠ كانت النسبة تتراوح بين ٣٠ و٤٠ فى المائة . فى حين ان النسبة فى ايطاليا ، وهى أكثر دول اوروبا الغربية نسلا ، لم تتجاوز ٢٣ فى الالف) وظلت نسبة الوفيات مرتفعة (٢٠ ـ ٢٥ فى الالف فى هولندا ، عام ١٨٧٠) . ونسبة الوفيات فى الاطفال عالية جدا ، اذ كان هناك عدد يتراوح بين ١٥ و ٢٥ طفلا من بين مائة طفل يموتون قبل ان يستكملوا عاما واحدا من عمرهم (اما الارقام بالنسبة لهولندا فكانت فى عام ١٨٧٠ تعادل ٢٠ فى المائة ، وفى سنة ١٩٤٠ كانت ٣ر٧ فى المائة) .

كان الفلاحون الاندونيسيون زراعا اسيويين ، بمعنى انهم يزرعون الارز (٥٠ فى المائة من الارض الصالحة للزراعة) والذرة (٢٥ فى المائة من الاراضى الزراعية) • وكانوا يعملون بجد واجتهاد ، ولكنهم من الناحية الفنية والاقتصادية كانوا بدائيين • وكانت الملكيات فى جاوة ، بصفة خاصة ، صغيرة جدا ، فلم تزد فى المعدل عن فدانين ونصف فدان ، اى انها كانت بنسبة ٥ر٠ من الفدان للشخص الواحد من السكان الزراعيين ، بما فى ذلك النساء والاطفال . وكان ثلاثة ارباعهم يملكون أقل من فدان ونصف فدان ، وكان ثلثاهم لا يملكون بقرة واحدة ولم يكن هناك الا ١٠ فى المائة ممن يملكون ثورا او جاموسة ، ولم يكن لديهم سماد صناعى وهو من الاسس الجوهرية فى المزارع الامريكية والاوروبية (فى سنة ١٩٤٠ كانت حوالى واحد فى المائة من المزارع) .

وهبط محصول زيت جوز الهند بالنسبة لاجمالى المساحة المزروعة فى خلال تلك الفترة بما يعادل ١٠ فى المائة كما هبط محصول المساحة المنزرعة التى يملكها الزراع ، وكان الناتج قليلا

جدا ، ويعادل ٣٠ هندردويت للفدان ،في حين انه فى الصين ٥٠ هندردويت بالنسبة للفدان ، ويبلغ فى اليابان ٨٠ هندردويت تقريبا . يضاف الى هذا ان المزارع الكبرى ، أعنى المزارع التى يملكها الاوربيون ، كانت تشغل سبع المساحة المنزرعة ، وبطبيعة الحال كان هذا السبع هو اجود الاراضى ولكن واحدا فى المائة فقط من زراعه كانوا اندونيسيين .

والمستفاد من الارقام الرسمية للادارة الهولندية ، ان الفلاح كان يكسب فى المعدل ١٦٠ جيلدا هولنديا فى السنة . كان يدفع منها ٢٠ جيلدا كضرائب ، وهذا معناه ان دخل الاسرة المتوسطة كان ٨ سنتات فى اليوم .

ان الكثيرين من العمال وربع سكان الريف لم يكسبوا كثيرا . وكان الزراع الاغنياء وحدهم (حوالى ٣ فى المائة من القرويين ممن كانوا يملكون حوالى ١٢ او ١٣ فدانا) هم الذين يربحون ما يصل الى ١١٠٠ جيلد سنويا . وعلى المرء أن يقارن فقط ارقام الاستهلاك ، وهى بارومتر الرخاء الزراعى ، فقد هبط استهلاك الملح من ستة ارطال للفرد الواحد فى سنة ١٩٢٠ الى اربعة ارطال وهبط استهلاك الارز بين عام ١٩١٤ وعام ١٩٤٠ بمعدل ١٥ فى المائة .

كل هذا كان معروفا جيدا لدى الحكومة فى جاكرتا ولدى الحكومة فى لاهاى . وقد كشفت التقارير الاحصائية وتقارير الحكومة الحقائق . ولكن بالرغم من علمهم بأحوال جزر الهند فان العوامل السيكولوجية كانت تمنعهم من نشر المعلومات الخاصة باندونيسيا . ومن ذا لايتذكر الطريقة التى كانوا يتناقشون بها : لو لم يكن هناك مسئولون هولنديون لكانت البلاد قد غرقت فى الفوضى ، ولو لم يكن هناك زراع هولنديون لكانت المزارع قد غطتها الحشائش .. ان الوطنيين الكسالى لم ينضجوا للحكم الذاتى . ان المستعمرات الهولندية مثل رائع للحكم الاستعمارى الحديث » .

وكثيرون من الهولنديون كانوا يؤمنون بهذا عن صدق ، ولم يكن الهولنديون وحدهم ، ولم يكن بارونات السكر والنفط الرجعيون وحدهم ،بل أن هذه الفكرة كان يؤمن بها عدد كبير من الاوربيين الغربيين . ومهما يكن من أمر . فان كثيرين من الاندونيسيين . فى عام ١٩١٩ ، لم يحسوا بالاحترام حيال الهولنديين ، كما كان الحال من قبل ، ويتضح هذا من كتابات الانجليز ج٠س٠فورنيفال ٠ بيد أن الاندونيسيين - على عكسه - لم يعقدوا مقارنات بين اندونيسيا وبورما . ولكن بين اندونيسيا وهولندا ، واندونيسيا واليابان ، واندونيسيا والاتحاد السوفيتى ان الحكومة الهولندية كانت تفكر بمنطق المصانع الاقتصادية الاوروبية . وفى جميع النظريات العلمية والاخلاقية المتعددة الخاصة ببلوغ اندونيسيا مرحلة النضج . كان البورجوازيون الهولنديون - كما قال « حتى » فى سنة ١٩٢٨ ، يخفون رغبتهم فى ربط اندونيسيا الى هولندا ، الى الابد ، بوصفها مزرعة كبرى للبن وقصب السكر للملكة الهولندية . كانت الرغبة واضحة مفهومة . وكان لها أثرها على رخاء المزارع الاندونيسية وتنوعها وعلى منتجاتها . فمن عام ١٩٣٤ انى عام ١٩٢٨ صدرت اندونيسيا ٩٠ فى المائة من كينين العالم و ٨٠ فى المائة من فلفه و٦٠ فى المائة من الكابوك و٤٥ فى المائة من منتجات نخيله ، ٣٥ فى المائة من مطاطه و ١٧ فى المائة من قصديره و ١٥ فى المائة من شايه و ٥ فى المائة من بنه وسكره و ٤ فى المائة من تبغه و ٣ فى المائة من بتروله ، وفى عام ١٩٢٩ استثمرت فى اندونيسيا ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٥ جيلد هولندى ، كانت اربعةاخماسها من رؤوس الاموال الهولندية٠ لقد استثمرت فى بلد كانت الاموال التى تنتزع منه تزيد ٠٠٠ر٠٠٠ر٧٠٠ جيلد سنويا ، عما يبقى فيه ، اى ان هناك ما يقرب من ٠٠٠ر٥٠٠ جيلد كانت تتدفق على هولندا فى الساعة.

لقد رأينا من قبل كيف ان الحركة الوطنية صارت ثورية اكثر

فاكثر ، ولا سيما فى « ساريكات اسلام » الذى اصبح حزبا كبيرا فعلا . وكان ينتظم فى عام ١٩٢٠ مليونى عضو وكما كان الحال بالنسبة للكومينتانج ، كان هناك توتر فى داخل الحزب بين الزعماء الراديكاليين والاشتراكيين والبورجوازيين الذين كانت اكثريتهم من المسلمين ، وكان العنصر المسلم البورجوازى يدافع عن نفسه ضد التسلل الشيوعى .

وكنتيجة لهذا التوتر ولانشاء الحزب الشيوعى الاندونيسى فى عام ١٩٢٠ ، تفكك حزب « ساريكات اسلام » فى عشرات الاعوام التى أعقبت هذه الفترة . وبسبب تذبذب هذا الحزب بين الوحدة الاسلامية ، ذات الصبغة الشبيهة بالصبغة العصرية ، وبين الاشتراكية الاسلامية ، فانه فقد ثقة الفلاحين والعمال والاحزاب الوطنية الخالصة ، والحزب الوطنى الاندونيسى كذلك . ولم تكن الافكار الثورية ، المبالغ فيها ، لفترة الازمة ، سوى احلام خيالية فى مستعمرة امبريالية ، كما يقول « حتى » الرجل الواقعى . وعلى اية حال ، فان هذا الحزب ، باعضائه البالغين ٢٠٫٠٠٠ عضو فى سنة ١٩٣٠ ، كان من الاحزاب الكبرى ومن أعمدة الاستقلال الاندونيسى .

ونما الحزب الشيوعى بقدر لم يستطع اى حزب شيوعى آخر أن يبلغه . وكان الحزب الشيوعى الاندونيسى يتوقع فى تلك الفترة ـ شانه فى هذا شان الكثير من الاحزاب الشيوعية الروسية والغربية والثوريين الصينيين ـ ثورة اشتراكية ، شاملة فى اوروبا وآسيا . وتقضى النظرية الماركسية ، فى مفهومها الاوروبى ، بأن عمال المصانع ، لا الزراع ، هم الذين يؤلفون حرس الطليعة للثورة . ومع هذا فان جهود الحزب الشيوعى الاندونيسى ـ مثله فى هذا مثل الحزب الشيوعى الصينى ـ كانت موجهة ، فى أول مرحلة ، الى الاقتصار على اثارة العمال ، بالرغم من أن الفريقين كانا يسميان انفسهما احزاب العمال والفلاحين ، حدثت اضرابات خلال

فترة الرجعية ، تحت حكم الحاكم العام د. فوك (١٩٢٠-١٩٢٦) وتدخلت الحكومة ، واعتقل كبار الشيوعيين أو نفوا ، اما المحظوظين فقد سمح لهم بالمعيشة فى الخارج بصفة دائمة .

اما وقد حرمت الحركة اليسارية من زعمائها وتعرضت للانقسام الداخلى ، بسبب غموض التوجيهات الواردة من موسكو ، فقد مضت فى طريقها الى كارثة ١٩٢٦ - ١٩٢٧ . كانت الاضطرابات شاملة فى جاوة وفى سومطرة كذلك . وفى ليل ١٢-١٣ نوفمبر سنة ١٩٢٦ ، نشبت الثورة فى جهات مختلفة من باتنام وقطع الثوار أسلاك التليفون واحتلوا الكبارى حتى فى جاكرتا نفسها . وفى سوراكارتا وغيرها من الجهات ، وجد الشعور العام بالمرارة متنفسا له فى اعمال فردية من اعمال المقاومة ، احرقت فيها مخازن التبغ وبيوت الاوربيين .

وقمعت الثورة الشاملة فى جاوة فى خلال ايام قليلة ، بالرغم من ان الاضطراب ظل متصلا عدة أشهر ، وقمعت كذلك على وجه السرعة الثورة الحمراء فى سومطرة ، فى يناير سنة ١٩٢٧ ، وكان الثوار قد احتلوا مؤقتا محطتين من محطات السكك الحديدية .

وفى خلال ثورة سنة ١٩٢٦ - ١٩٢٧ ، القى القبض على حوالى ٣٠٫٠٠٠ اندونيسى ، اختفى منهم ٤٥٠٠ فى غياهب السجون ، وارسل آخرون الى معسكر الاعتقال الذى اقيم فوق « نهر ديجول الاعلى » فى غينيا الغربية ، المليئة بالمستنقعات ، واعدم بالمقصلة اربعة من المسجونين لسبب غير معروف . اما وقد صار الحزب الشيوعى الاندونيسى حزبا غير مشروع ، فلم تعد له اية اهمية ، ولكنه ترك وراءه تراثا من الاشتراكية الاهلية وطبقة عمالية اصطبغت بالصبغة الثورية شيئا ما ، وبعض التلاميذ هنا وهناك ، ممن يمكن الافادة منهم ، أما الاتصال بالكومنترن،حتى موعد حله فى عام ١٩٤٣ ، فلا يكاد يستحق الذكر

وكان كل شىء يجاوز الخطوط التى رسمتها الحكومة يسمى

« مقاومة » ، وكان كل نقد يوجهه الوطنيون يوصف بانه « ثورى وشيوعى » . وقليلون من الهولنديين هم الذين فهمـــوا ما قاله سوكارنو فى باندونج فى ٢ ديسمبر سنة ١٩٣٠ : ان استعماركم ينشر البؤس فى كل مكان ، انه يضطهد هذه البلاد ، وسيكون الخطأ خطأكم اذا اندلعت الثورة وشملت ارجاءها .

وفى ١٠ يونيو سنة ١٩٢٧ اعتقل البوليس الهولندى اربعة من الطلبة الاندونيسيين فى ليون ولاهاى ، كان احدهم محمد حتى الذى صار فيما بعد نائبا لرئيس الجمهورية الاندونيسية ، وكان احدهم كذلك هو على ساسترو اميد جوجو (رئيس الوزراء فيمابعد) وعضو هيئة « بيرهيمبوتان اندونيسيا » أى اتحاد الطلبـــــة الاندونيسيين فى هولندا (يومئذ) .

واطلق سراحهم فى مارس سنة ١٩٢٨ ، فقد كان القضاة فى لاهاى اقل تعصبا من زملائهم فى جزر الهند الهولندية . وكـان مغزى محاكمة اعضاء اتحاد الطلبة الاندونيسيين اعظم من مغزى اكثرية المحاكمات السياسية الاخرى . فان هذه المحاكمة تمثل لحظة تاريخية فى تاريخ استقلال اندونيسيا ، ففى اثناء التحقيقات الاولى ، التى استغرقت خمسة شهور ، كتب حتى وهو فى سجنه دفاعا يقع فى ثمانين صفحة ، ونشر فى لاهاى فى ســـنة ١٩٢٨ بعنوان : « اندونيسيا حرة » ، وكان المثقفون العصريون من امثال حتى وشاهرير يطالبون بأن تكون اندونيسيا الحرة الحديثة متحدة ديمقراطية ، وبوصفهم وطنيين ، فقد هاجموا الراسمالية باعتبارها سبب استعباد اندونيسيا .

وكانت تجربة المثقفين الاندونيسيين فى اندونيسيا لا تختلف عن تجربة اولئك الذين فى هولندا النائية . فبفضل توجيـــــه « المهندس » سوكارنو (وهو مولود فى ١٩٠١) الذى قــــرأ الكثير من آداب الماركسية ــ رغم انه ليس شيوعيا ــ تألف اتحاد الطلبة حوالى سنة ١٩٢٥ فى باندونج وكان على اتصال وثيق باتحاد

الطلبة الاندونيسيين فى هولندا ، ومنه نشأ ، فى ٤ يوليو سنة ١٩٢٨
حزب (بسريكانان ناسيونال اندونيسيا) وهو قائم منذ عام ١٩٢٨
بعد حزب سوكارنو وآخرين . وكان من الممكن ان يصير الدكتور
بيتو مانجو تكسومو (١٨٩٠ – ١٩٤٣) عضوا فيه ، لو لم يقبض
عليه فى باندانيرا فى عام ١٩٢٧ بتهمة الاشتراك فى الاضطرابات
الثورية فى باتنام ، وكان هذا الحزب هو حزب الوطنيين البورجوازيين
اليساريين ، وكان بمثابة ضوء وهاج فى غسق الاستعمار . وكانت
صحيفته الواسعة الانتشار « بير ساتوان اندونيسيا » تطالب
باندونيسيا مرديكا » أى اندونيسيا الحرة ، واطلاق سراح المعتقلين
عند نهر « ديجول » . وكان رد الفعل من حكومة لاهاى ، كما كان
متوقعا ، ردا بسيطا : ان الوطنيين يتمتعون بقسط كبير من الحرية
ان ما تواجهه هو ثورة « فهل كانوا يعتقدون حقا ؟ هذا ماقاله
البوليس السرى .

وفى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٨ وقع الهجوم على حزب
« بسبربكاتان ناسيونال اندونيسيا » وفتشت البيوت فى جميع
انحاء البلاد ، ونهبت ٤٠٠ من المبانى ، وصودرت أوراق فى عربات
امتلأت بها ، واعتقل ثمانية زعماء ، واصبحت الحركة الاندنيسية
جميعا ، وفى هولندا . كان الذين احتجوا هم الديمقراطيون
الاشتراكيون والشيوعيون وحدهم . وبدأت فى اغسطس سنة
١٩٣٠ محاكمة اربعة من الزعماء المعتقلين . وكان سوكارنو من
بينهم ، وذلك بتهمة انتشار الثورة ، وكانت محاكمة سوكارنو
ورفاقه فى الواقع محاكمة للحزب كله ، وكان قد دمغ ، عقب ذلك،
بانه حزب ثورى اجرامى محظور . وكان الخطاب الكلاسيكى الذى
القاه سوكارنو فى دفاعه عن نفسه فى ٢ ديسمبر ،وقد نشرته
صحيفة آربلدرزبيرز فيما بعد باللغة الهولندية فى استردام تحت
عنوان « اندونيسيا تتهم » تقول ان هذا الخطاب لم يؤثر بحال من
الاحوال على خطط الحكومة ، وصدر الحكم فى فترة اعياد الميلاد ،

حكم على سوكارنو بالسجن اربعة اعوام ، وحـــكم على الآخرين بمدد أقصر .

وفى الوقت نفسه أصبح جليا أن سوكارنو ورفاقه كانوا اكثر ادراكا للحقيقة من الحكومة الهولندية . وصار من الواضح كذلك ان الحركة الوطنية فى اندونيسيا لم تكن ، فى بساطة ، من عمـل المثقفين المندفعين والشيوعيين ولكنها كانت رد الفعـــل الطبيعى الشامل لشعب مستعمر ، عقد العزم على ان يكون حرا ، وان الغليان الذى شمل آسيا كلها (وافريقيا وامريكا الجنوبية كذلك) لم يكن شرارة صغيرة أشعلها حفنة من العصريين ، ولكنه كان لهبا متأججا اشعلته الاغلبية المقهوره المتخلفة من شعوب العالم . وكـــان ما تشهده اندونيسيا يومئذ هو ثورة عصرنا . وكما قال سوكارنو :ان الشمس لاتشرق لان الديك يصيح،بل‌ان الديك يصيـــح فتشرق الشمس »

وقد خلق التفسير الخاطىء للموقف ، الذى فسرته العناصر الرجعية فى هولندا ، من روح الثورة والانفعال ، اكثر مما خلقـــه موقف حفنا من المثقفين والاحرار الاوروبيين ، الذين وجـــدوا متنفسا للتعبير عن آرائهم فى مجلة دى ستو الاسبوعية (الدفاع : ١٩٣٠ ــ ١٩٣٣) وكان من بين الذين يسهمون فيها بمقالاتهم : الدكتور هـ .(. فان موك مدير وزارة الاقتصاد من عام١٩٣١ ــ ١٩٤٢ ، والحاكم العام فى سنة ١٩٤٢ وفى الفترة المحصورة بين ١٩٤٤ و ١٩٤٨) .

والامر الذى كان له اهمية كبرى ، هو انضمام عشرة اعضاء ليؤلفوا جماعة اندونيسية فى (الفولكسراد) (يناير ١٩٣٠) وكان زعيمها الاكبر هو محمـــد تامران (١٨٩٤ ــ ١٩٤١) وكـــان رجلا شجاعا قديرا ذكيا ، ناقدا للادارة الهولندية ، حتى ولو لـــم ينتهج هو وأصدقاؤه أساليب حزب « البسيريكاتان ناســيونال اندونيسيا » ، وقد حل هذا الحزب بمحض اختياره فى عام ١٩٣١

ولكن حزبين جديدين واصلا سياسته ، الاول هو حزب « بارتيا اندونيسيا » (ابريل سنة ١٩٣١ . وهـــــو المعروف عادة باسم « بارتيندو » وبفضل توجيه سارتونو ، وهو من اصدقاء سوكارنو الذين يثق بهم ، صار حزبا جماهيريا ، اختفى منه على ما يبدو ؟ العنصر الاشتراكى فى حزب « اليسيرتكاتان ناسيونال اندونيسيا » وقد وصفه حتى بأنه « فاتر » ورأى ان يكافح ضد الاستعمار والرسمالية عن طريق الحزب الثانى الجديد ، وهو « نبديديكان ناسيونال اندونيسيا » (وقد انشىء فى جاكرتا فى ديسمبر ١٩٣١ ؟ وكان رئيسه سوتان شاهرير (المولود فى ١٩٠٩) . وكان حزبا صغيرا ولكنه اكثر ثورية ، وظل فترة طويلة يحتل مكانتـــــه كحزب من الاحزاب الثلاثة الكبرى فى اندونيسيا .

واطلق سراح سوكارنو فى ديسمبر ١٩٣١ وكانت جماهير المستقبلين تحييه فى كل محطة وقف فيها قطاره وهو عائد الـــى وطنه . وقد حاول سوكارنو زمنا طويلا ان يوحد الحزبين ولكـن دون جدوى . ومع هذا فقد حاولت الحكومة ان تقمعهما معا .

وكان من الممكن ن يصير الحكم الهولندى اكثر ديمقراطيــة واكثر اتجاها الى الروح الحديثة ، لو لم تتعرض اندونيسيا للازمة الاقتصادية الشاملة . أن مزارع قصب السكر تهيىء مثلا كلاسيكيا لنتائجها وعواقبها . فمن ١٨٠ معملا من معامل التكرير التى كانت تعمل فى عام ١٩٢٨ ، ظل ٥٠ فقط يعملون فى سنة ١٩٣٤ وهبطت المساحة المزروعة الى السدس ، وينطبق هذا على الشاى والمطــاط والبن والتبغ . وفى سوق جاوة ، هبطت اسعار الارز من ٧٥ الى ٢٥ (فلورين هولندى) للطن . ان اندونيسيا بدأت تعانى المجاعة.

فماذا كان رد الفعل ، من ناحية الهولنديين ، لهذا الموقف ؟ ان الاتجاه المتزايد الى رد الفعل وجد متنفسا فى اجراء تعـــديل فى الحكومة . وفى عام ١٩٣١ صار جونكســــير ب.سى دى جونج (١٩٣١ ــ ١٩٣٦) . وهو الرئيس السابق لشركة بترول باتافيه

حاكما عاما ، كان محافظا ضيق الافق عديم الخبرة بالحركة الوطنية . وهو لم يدر بها ولم يسلم بوجودها . قال : لقد حكمنا لمدة ثلاثمائة سنة بعصا رجل البوليس ، ولن تختلف الامور فى الثلاثمائة عام القادمة ، لقد حاول ان يضع العراقيل بطريقة فان موك ، « ان البدع الديمقراطية » ، مثل حرية الصحافة وسرية المراسلات الخاصة قد انتقصت الى درجة قاسية ، وعلى الصعيد الاقتصادى ، كانت حكومته طبعة حديثة لسياسة القرن السابع عشر .

وفى سنة ١٩٣٢ انفجرت القنبلة ، بالمعنى الحرفى . ان قمع حركة الاضراب والعصيان التى وقعت على ظهر الطرادة المسماة « الاقاليم السبعة » (من ٤ — ١٠ فبراير) قد أودى بارواح ٢٣ من بحارتها الاندونيسيين . وسرح ٥٠٠ بحار اندونيسى و٨٠ بحار هولندى من الاسطول . ولربما لم يكن للحادثة مغزى كبير بالنسبة للتطور الشامل للحركة الاندونيسية . ولكنها ، مع هذا ، كانت اشارة الانذار ، فى الداخل والخارج . وكانت نبأ جديدا ، فى جميع انحاء العالم ، ولاسيما بين العمال .

وفى يونيو ، منع موظفو الحكومة من الانضمام الى حزب « بارتيا اندونيسيا » والى حزب «بيسريكتان ناسيونال اندونيسيا» وكان للحزبين ٢٠,٠٠٠ و ١,٠٠٠ عضو ، وفى أول اغسطس سنة ١٩٣٣ ، القى القبض على سوكارنو ، وفى فبراير ١٩٣٤ اعتقل حتى وشاهرير وكثيرون غيرهما ، ونفى سوكارنو الى غينيا الجديدة ثم اطلق اليابانيون سراحه فى سنة ١٩٤٢ ، وكان سجنه مثلا للاجراءات التى اتخذتها الحكومة ضد زعماء الحركة الوطنية .

وفى مارس ، ومن وراء قضبان سجن تشيبيتانج ، كتب شاهرير الصفحات الاولى من دراسته التكميلية لتطور اندونيسيا والعلاقات بين الشرق والغرب ، وقد دلل فيها ، كما فعل نهرو ، على انه يدرك التناقض الاستعمارى والمعارضة كذلك ، لقد صارت الكلمة

اكليشيه ، بين الحضارة الشرقية الوجدانية ، وحضارة الغرب العقلية ، وفى صفحات يومياته (التى نشرت فى هولندا فى عام ١٩٤٦ تحت عنوان « أفكار من اندونيسيا » وصف كيف انه هو نفسه وحتى وآخرين قد هبطوا نهر ديجول فى ليلة من ليالى يناير الى معسكر تاناه ميراه ، حيث كان ٤٠٠ منفى آخرون يعيشون فى غابات رطبة مليئة بالملاريا ، وهم معزولون عزلا تاما عن العالم الخارجى ، ويستبد بهم حراسهم الهولنديون ، وفى فبراير سنة ١٩٣٦ ، نقل حتى وشاهرير الى باندانيرا (١٩٣٦ - ١٩٤٢) ؛ ومكان النفى هذا رمزى لانه كان من زمن بعيد حصنا هولنديا فى هذا الفردوس الذى يموج بالافاوية . وشيدت القلعة الاولى فى عام ١٦١٧ . وذبح السكان الاصليون أو طردوا . وفى اثناء اقامة شاهرير هناك ، كان المهاجرون القادمون من بوتون يعملون فى مزارع جوز الطيب فى مقابل عشر سنتات فى اليوم .

وفى الوقت نفسه تمزق شمل (بارتيا اندونيسيا) ، واختنق حزب « بسيريكتان ناسيونال اندونيسيا » ولكن الأمر الذى حدث فى اجراء الحكومة المضاد فى عام ١٩٢٦ - ١٩٢٧ ، عندما انتهى الحزب الشيوعى الاندونيسى ، وعندما اختفى حزب « بسيريكتان ناسيونال اندونيسيا » من المسرح فى عام ١٩٣٠ - ١٩٣١ ، تقول ما حدث آنئذ قد تكرر حدوثه ، فقد نما وعى الشعب فى صمت كما ينمو الارز . وتغيرت الاحزاب ، فى الاسلوب وفى النظرية ، ولكن الدافع الى الحرية ازداد قوة ، ونعنى به الدافع الى تحقيق حرية اندونيسيا . ونشأ حزبان وطنيان جديدان ، كان اولهما حزب اندونيسيا راجا (بارتدرا) فى عام ١٩٣٥ ، وكان هذا الحزب يضم البورجوازية الحديثة فى اندونيسيا ، والراسمالية الوطنية التى يمكن أن تقارن ، كحزب وطنى بورجوازى ، كحزب الوفد فى مصر أو حزب كمال (اتاتورك) فى تركيا ، وبالرغم من نشاط هذا الحزب الاجتماعى والاقتصادى والثقافى بين جماعاته المتعددة من الفلاحين ، فانه لم يكن حزبا ديمقراطيا .

وقد انتقد حزب « بيرهيمبوتان اندونيسيا » فى هولنـــدا وحزب « بسيربكنان ناسيونال اندونيسيا » فى داخل البلاد ، هذا الحزب باعتباره جبهة بورجوازية ، ونتيجة لهذا النقد ، قام الحزب الاشتراكى اليسارى (مايو ١٩٣٧) وهو جيراكان راكجـــان اندونيسيا (جيرندو) ، وفى المجال الثقافى ساعدت منظمـــة محمديجاه (من عام ١٩١٢) وحركة تامان سيسوا ، التى اسسها كى هاردرجار ديوانتورد فى ١٩٢٢ (سواردى سورجاه نينجرات) على صبغ البلاد بالصبغه العصرية .

وعلى اية حال ؛ فلم يحدث تغيير فى الطريقة التى كانت تحكم بها اندونيسيا من لاهاى ، وبدأت الصحف الاوروبية فى اندونيسيا تميل صوب الفاشية ؛ كما حدث فى الفترة التى هددت فيهـــا اليابان بالمضى فى توسعها جنوبا وكانت تحتل آنئذ أغنى المناطق فى الصين . وأخذت (سفن الصيد) اليابانية تظهر كثيرا فى ميــاه الفلبين واندونيسيا . وقدمت طوكيو الى بتافيا مايمكن أن يعتبر أكثر من مجرد انذار اقتصادى . وبدت رائحة الحرب فى الجو وبدا ان المناورات السرية التى تقوم بها السفن الهولنـــدية والبريطانية تؤكد الشائعات جميعا .

وكان شعب اندونيسيا ، بجماعاته المتزايدة ، يتوقع ان تعمد طوكيو الى تحريره ، ان آسيا للاسيويين . وحزب « جيرنيدو » وكان مناهضا للفاشية وميالا الى المجال الدولى ، وكذلك المنفيون (الشيوعيون فى الخارج وشاهرير وتجيبنو ممثلا فى اندونيسيا ذاتها)، هم وحدهم الذين ادركوا ، كما ادرك نهرو ، خطـــورة التوسع الاستعمارى ، الالمانى واليابانى ، واحسوا بأن الخطر لن يقتصر على الديمقراطيه الغربية بل يشمل الديمقراطية الاسيوية كذلك .

وفى هذا الجو المتقلب سقطت هولندا سقوطا تاما ،ولقدكتب بورن فى القرن الثامن عشران امبراطورية عظمى وعقولا صغيرة

مرضت معا . وهذا ما لوحظ فى اندونيسيا كذلك . ان عريضــة سوتارجو (١٩٣٦) والتى اتخذ فيها من حالة الفلبين نموذجا ،والتى طلب فيهااجراء مفاوضات هولندية اندونيسية وقدرااوسع من الحكم الذاتى ، بعد عشر سنوات ، لم تكن بحال ، مطالبا ثوريا ، بل انها تركت على المنضدة فى لاهاى مدة عامين قبل ان يعلن الهولنديون رفض الطلب ، وفى تلك الفترة ذاتها ، عندما كانت لندن وواشنطون ترخيان من قبضة حكمها فى الهند وباكستان ، وفى بورما والفلبين، ظلت الحكومة الهولندية تتجاهل الامر وترفض التنازل عن شبر ، وهذا ما وحد اندونيسيا ، ففى سنة ١٩٣٩ استطاع سوكارنو أن يفعل ماكان يعد امرا مستحيلا ، منذ زمن بعيد ،لقد وحد الهيئات الوطنية المختلفة فى ظل اتحاد « فدرالى » ، والمؤتمر العام « راكجات اندونيسيا » أمره معلوم جيدا ، لقد عقد فى فترة عيد الميلاد سنة ١٩٣٩ ، ويومئذ شوهد اللونان الاحمر والابيض اللذان يؤلفان علم المملكة القديمة مملكة « مود جوبا هيت » وسمع كذلك النشـــيد الوطنى « اندونيسيا راجا » كرمز للحرية الوطنيـــة ، وصارت « بهاهاسا اندونيسيا » ، التى كانت قد اشتقت من لغة الملايو، بوصفها لغة ثقافية ، اللغة العامة للبلاد .

وبعد ان احتل الالمان هولندا ونصف اوروبا ، وبعد ان غــزا اليابانيون الهند الصينية رفضت الحكومة الهولندية ــ وهى فى المنفى بلندن ــ الطلب المقدم من تامرين فى ٩ اغسطس بأن تتغير عبارات « جزر الهند الهولندية وهندى هولندى ومواطنين » ، فى السجلات الرسمية وبيانا تالحكومة ، بحيث تصير : اندونيسيا وأندونيسى واندونيسيين ، وللمرة الثانية استخدمت الحكومة كل حجة علمية صورية ممكنة . ولم تسلم الا بأن تصير عبــارة « مواطنين » فى الوثائق الرسمية « اندونيسيين » أو سكان البلاد الاصليين ، وقال كاتب هولندى ، أحد ابويــه اندونيسى : ليس هناك تعبير اكثر تضليلا أو أكثر اثارة للانسان من تعبير « مواطن » (دى بيرون ، مذكرة اندیش)

ان الدليل على ان الحكومة كانت تحس احساسا غامضا ، بل غامضا جدا ، بأنه اذا لم تتم اصلاحات فى اندونيسيا ، فانها ستكون فريسة سهلة لليابانيين ، انما تؤيده حقيقة مؤاها ان لجنة اسمها لجنة فيسمان قد كلفت فى خريف سنة ١٩٤٠ ببحث حقيقة الشعور فى اندونيسيا . لقد كانت مناورة يقصد منها التلهية ؛ وجاءت متأخرة ، ففى اليوم الذى سبق تقديم التقرير الشامل من الحاكم العام « تجاردا فان ستار كنبورو » كانت الحكومةالهولندية فى لندن قد اعلنت الحرب ، فى ٧ ديسمبر سنة ١٩٤١ ، على اليابان عقب الهجوم على بيرل هاربور .

٤

الهند الصينية والملايو وتايلاند

ان الصورة التى كانت عليها آسيا الجنوبية الشرقية بصفة عامة . بين الحربين ، لا تختلف اختلافا كبيرا عن الصورة التى كانت عليها للفلبين واندونيسيا ٠٠ واذا نظرنا الى الموقف من الخارج ، رأينا ان التطور كان أقل عنفا ، فقد كان الوطنيون يعينون فى الحكومة ، وكانت العناية الصحية والطبية شاملة ، وتناقصت الأمية ، وازداد عدد المثقفين الذين يتعلمون فى الجامعات الاوربية وفوق هذا كله فقد صار نفوذ الغرب فى المجال الاقتصادى كبيرا ، وانشئت الموانى والطرق الحديثة ، واتسع نطاق صناعة التعدين (القصدير والبترول) • وامتدت رقعة المزارع والزراعة الغربية (المطاط وزيت النخيل) • واذا نحن تحدثنا بصفة عامة . أمكن القول بأن الاقتصاد كان مرتبطا باقتصاديات الغرب ، فيما عدا تايلاند ٠٠

وكان يصاحب هذا زيادة فى عدد السكان تفوق المعدل ٠٠ ففى آسيا الجنوبية الشرقية كلها ، بما فى ذلك مجموعات الجزر ، ارتفع عدد السكان فى عام ١٩٣٩ الى ١٥٠ر٠٠٠ر٠٠٠ ، بزيادة تعادل ٣٠ فى المائة ، فى خمسة عشر عاما ، وكان سوء التغذية وسط جماهير هذا العدد من السكان منتشرا على نطاق واسع •

وحاولت طبقة بورجوازية صغيرة وطنية فى تلك البلاد أن تصد الغزاة من الغرب والمهاجرين من الصين ٠٠ ففى الملايو حيث كان الصينيون يؤلفون ٤٠ فى المائة من عدد السكان ٠٠ وفى تايلاند حيث كانوا يؤلفون ١٥ فى المائة ، كانت المقاومة الوطنية ضدهم . لا ضد الرجال البيض ٠٠

وفى خـــلال الفترة ما بين الحربين ظل الموقف دون تغيير جوهرى ٠٠ فلم تتحرر أية مستعمرة من مستعمرات آسيا الجنوبيه الشرقية ، فى حين أن وضع الفلبين ، منذ عام ١٩٣٥ ، كان يقرب من وضع احدى بلاد الدومنيون ، اذا ما نظرنا اليها من زاوية شكل الحكومة ٠٠ ومع هذا ، عقد كان الموقف فى الواقع مهيأ لتغيير هام أى للاستقلال من التدخل الاوربى والامريكى ، حتى ولو كان هذا مجافيا لأهداف الغرب ٠

وثمة عنصر آخر هام جدا فى المراحل الأخيرة لتاريخ آســيا الجنوبية الشرقية ، ويكمن فى نتيانها الاقتصادى ومركزهـا فى العالم ٠٠ ان هناك عددا صغيرا جدا من صغار زراع الأرز ٠٠ ولكن هناك عددا كبيرا جدا المزارع لكبيرة لتى يملكها رجال بيض ٠٠ وقد صدر منها فى عام ١٩٣٩ ما يقرب من ٩٠ فى المائة من مطاط العالم و٩٥ فى المائة من أرزه و٦٥ فى المائة من زيوته النباتية و٢٠ فى المائة من سكره الخام ٠٠ وكانت هناك كذلك مناجم غنية وحقـول زيت تنتج حوالى ٥٢ فى المائة من قصدير العالم و٨ فى المائة من الألومنيوم و٤ فى المائة من الزيت المستخرج من باطن الأرض ٠٠ وقد سبب مثل هذا الموقف قلقا شديدا للغرب ، وهـذا ما يفسر كذلك لنتائج المدمرة الثورية للازمة الاقتصادية الكبرى ٠

يضاف الى هذا ، ان جميع دول تلك المنطقة من عام ١٩٣٥ ، أو من عام ١٩٣٧ على وجه التحديد ، كانت تعيش فى ظلام التوسـع اليابانى ٠٠ فهل كان الظلام الذى يسبق الفجر ؟ فاذا كان هذا ، فى بعض الحالات ، قد خفف من الشعور المعادى للغرب ، ولا سيما بين العناصر الثورية فانه عمل كثيرا على زيادته ومن ثـم عمل على تضاؤل النفوذ الغربى ٠

ان التاريخ خليط من العوامل العامة والخاصة ٠٠ فاذا رغب المرء فى ان تكون لديه صورة واضحة . وجب أن يحقق العـوامل

بشقيها ، ونعني بالعوامل الخاصة طابع البلد وماضيه وشـــعبه والسمات المميزة ، التي تميز كل استعمار . فيما يهم آسيا بالذات ، ولقد عقدنا مقارنة بالفعل بين الاستعمار الاســـباني والفرنسي ـوالهولندي والبريطاني في دول آسيوية مختلفة وعندما عالجنـا موضـوع الفلبين كان يغنينا هذا (القادم الجديد) نسبيا ، وهـو الاستعمار الأمريكي .

وفي الهند الصينيه ، يمكننا أن ندرس الاستعمار الفرنسي في آسيا .. وعندما عالجنا شئون الدول العربية لاحظنا الى أى مدى كان الفرنسيون مقتنعين بتفوق ثقافتهم الخاصة وكيف كانوا يؤمنون بأن باريس هي قلب المدنية الاوروبية بمعنى انها مركز الثقـافة والثقافة معناها الثقافة الفرنسية .. والحقيقة المؤكدة أن فرنسا لعبت في تاريخ الثقافة دورا فريدا .. الا أن التطور مســتمر ، وباريس في عام ١٩٤٠ يقل شأنها عما كانت عليه باريس في سنة ١٩٠٠ .. ولقد حاولت فرنسا ، أكثر من اية دولة أوروبية غربية أخرى ، أن تخلع الرداء الفرنسي على مستعمراتها في آسيا وشمال افريقيا ، وهي تعمل في هذا تحت وهم مؤداه ان من الممكن تحويل اجزاء من افريقيا وآسيا لتصير أجزاء من فرنسا ، وقد سميت هذه السياسة سياسة (الاستيعاب) ..

ولكن الهند الصينية لم تصبر كما كانت فرنسا تامل ، فقد ظلت في الواقع جزءا من آسيا ، وبقيت كذلك الى ان وضعت الحرب العالمية الاولى والثورة الروسية واليابان الحديثة والثورة الصينية طابعها على تاريخ آسيا ..

ويمكن القول ، بصفة عامة ، ان الفرنسيين لم يكونوا اكثر حظا من الهولنديين أو البريطانيين فيما يتعلق بادراك ما كان يختمر في مستعمراتهم الاسيوية .. كان الرأسمالي الفرنسي ـ وهوعلى غير دراية بما يجرى ، ويهتم اهتماما يكاد أن يكون شاملا بما يقع في بلده وحدها وفي أوروبا الغربية ـ ينظر الى الهند الصينية نظرته

الى ارض غنية غريبة ، حيث يعيش اناس بدائيون من الفلاحين ، يسعدهم الى الابد أن يعنوا بأرضهم ، وحيث نقلت حكومة أوروبية مقتدرة ، فى هوادة ، ثقافة فرنسا الى قراهم الشاعرية بنخيلهـا وغابها الهندى ..

وكانت النواحى ، الاقل اشراقا ، من الحقيقة ، غير مفهومة ، ومنها أن ثلثى الزراع فى وادى النهر الاحمر كانوا يزرعون قطعا من الارض لا تزيد عن الفدان الا قليلا ، وان زراع فيتنام لايحصلون الا على قدر قليل من الارز مرتين فى اليوم ، وان السكان المشتغلين بالزراعة كانوا يواجهون أزمة اقتصادية ، وكان القلائل هم الذين يعرفون كم من البورجوازيين الوطنيين والمثقفين والزراع طالبـوا بثورة فرنسية ـ تكون من صـنعهم ـ وكيف أن أفكار ماركس ولينين قد ازدادت انتشارا ، وكيف أن البلاد كلها ضاقت ذرعـا بالتدخل الأجنبى .. وكانت للهند الصينية ولا سيما فيتنـام (تونكين وانام وكوشين شينا) علاقات كثيرة تاريخية وثقافية .. وكانت هاتان المنطقتان مقاطعات خارجية ، وقد أنعشت كانتـون وهى قلب الثورة الصينية ، الروح الثورية فى الهنـد الصينية وردتها الى الحياة ، وكان لجميع الحركات والتحولات التى وقعت فى الصين انطباعها على عدد كبير من الناس هنا ، أكثر مما كان لها فى بلاد أسيوية أخرى ، وكما أقام الدكتور صن مقر قيادته فى هانوى ، كذلك أقام قائد قواد الهند الصينية ، فى مستهل الفترة التى تعنينا ، قواعده فى كانتون وهونج كونج ، وقد أسمى نفسه بيحرين أى كبوك . وهو (هو شى منه) اليوم .

ويبدو أنه ولد فى حوالى عام ١٨٩٢ فى احدى المقاطعـات الشمالية فى فيتنام ، فى (نجى ـ آن) التى أطلق عليها الفرنسيون إسم المقاطعة الثائرة ، وذهب الى أوروبا فى سنة ١٩١٠ ليشتغل خادما فى مطبخ .. وفى سنة ١٩١٣ صار خادما فى مطعم مشهور بلندن .. وعندما غزا الألمان فرنسا فى سنة ١٩١٤ حاول انينضم

الى الجيش البريطانى ٠٠ ولكن طلبه رفض ، فذهب الى باريس حيث حاول ـ كما سبق أن ذكرنا ـ أن يثير اهتمام الساسة فى فرسا بمنح الحرية للهند الصينية ، وكانت النتيجة الوحيدة لهذا ، ان البوليس السرى الفرنسى ركز عليه اهتمامه ٠٠ وقضى زمنا فى المانيا وايطاليا وسويسرا ، وكتب مقالات للصحف اليسارية ٠ ولما عاد الى باريس عمل بعض الوقت عند أحد المصورين ، وكتب فى دور الكتب كتابه (محاكمة الاستعمار الفرنسى) وظهر الكتاب فى سنة ١٩٢٦ ، وبفضله صار معروفا فى فرنسا والهند الصينية تدريجيا ٠٠

وفى الوقت نفسه صار عضوا فى حزب سياسى فرنسى هو حزب الاشتراكيين ٠٠ فكان أول مواطن من فيتنام ينضم الى عضوية ذلك الحزب، وقد انشق الاشتراكيون الفرنسيون فى مؤتمر الحزب التاريخى الذى عقد فى تورز فى عام ١٩٢٠ ، الى حزبين : أتباع الدولية الثانية (لعام ١٨٨٩) وأتباع الدولية الثالثة (التى أسسها لينين فى عام ١٩١٩) . وقد انضم (هو) الى الأخيرة منهما ، ومن موسكو ـ حيث كان بارزا فى الدوائر الثورية الاسيوية مثل تان ملقا ، ن الملايو و ٠ ن٠ روى من الهند ، وسين كاتاياما من اليابان ، وشيانج كاى شيك من الصين ـ رافق بورودين الى كانتون كمترجم ٠٠ وكان كثيرون من الاندونيسيين يعيشون هناك ٠٠ وقد أسس فيها نان ـ نين ، وهو ، حزب أنامى يسارى مطرف ثورى ٠٠ ومن أكاديمية وامبو التابعة لحكومة الكومنتانج ارسل الانصار الذين يؤلفون الخلايا ـ وكان من بينهم كثيرون من أعضاء حركة الشباب الانامية ـ الى فيتنام وتايلاند ٠٠ وكانت أهداف (نان نين) هى أهداف الجناح الأيسر من الصينيين ، أى التعاون بين البورجوازية والزراع والعمال لطرد الاستعمار الغربى بالطريقة اللينية المتميزة ٠ ٠وذلك باشاعة الانقسام بينهم وانتزاع مكانة حركة المقاومة العنيدة التى لا تستسلم ٠٠ وقد ظهر الطابع

اليائس للحركة مثلا فى المحاولة التى قام بها طالب تونكينى لاغتيال الحاكم العام الفرنسى (ميرلان) اثناء زيارته لكانتون ٠

وعندما وقعت الثورة المضادة فى الصين ، ف ى عام ١٩٢٧ ، فر (هو) ، عن طريق هانكاو وموسكو ، الى تايلاند حيث ظل مختفيا حتى عام ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩ ، وظهر نان ـ نين ، فى كانتون متحررا من النفوذ الصينى (الابيض) ٠٠ وبينما ظلت الدولية الثالثة ، بسبب فشل الثورة الشيوعية فى الخارج ، بمنأى عن الاحزاب البورجوازية ، وظل الشيوعيون الاسيويون مبعدين عن الحركات الوطنية فى بلادهم ، ظل (هو) أمينا ـ من ناحية المبدأ ـ لخططه وتكتيكاته السابقة ، ومهما يكن من أمر ، فان التغيرات الصينية والدولية قد انعكست على موقف الوطنيين الاندونيسيين ٠ وقد غير (تان ـ نين) اسمه وأطلق على نفسه اسم (الحزب الشيوعى للهند الصينية) ٠٠ حدث هذا فى عام ١٩٢٩ ، وفى العام نفسه تفكك حزب الشباب الأنامى بسبب الخلافات الداخلية ذاتها التى دفعت الصين الحمراء ، والصين البيضاء الى حرب اهلية ٠٠ وفى خلال فترة الحكم المتحرر للحاكم العام الاشتراكى (فارين) (١٩٢٥ ـ ١٩٢٨) ظهر حزب كوادى دان دانج الفيتنامى فى هانوى ٠ وكلمة كوان دان دانج ، ترجمة لكلمة كومنتانج ، وقد اتخذ صورة حزب الحكومة الصينية وكان أكثر الأحزاب الوطنية نفوذا فى بورجوازية الهند الصينية خلال الفترة التى توسطت الحربين ٠٠ وكما كان الحال فى الهند واندونيسيا ، وقعت اضرابات فى الموانى وثورات متفرقة بين الزراع ، وكانت دلالة على روح الاحتجاج المتزايدة ضد الحكم الفرنسى ، وصارت أشد عنفا حتى انها بلغت فى عام ١٩٣٠ـ ١٩٣١ مرحلة حرجة ٠

وفى عام ١٩٢٩ وقعت محاولة لاغتيال الحاكم العام (باسكييه) كما نجحت محاولة اغتيال (بازان) مدير احد مكاتب الاستخدام فى هانوى ، وكان الاغتيال فى مناجم من المعاملة الوحشية التى كان

يلقاها عمال المناجم فى مناجم تونكين ، وكانوا يطلقون على مناجم الفحم (جحيم هون جيبز) وعلى مناجم القصدير (وادي الموت) .. الا ان ما كان يطبخ فعلا فى قزان السخرة الاستعماريين قد تكشف أمره فى حركة العصيان التى وقعت فى ينباى ، وهى قلعة قائمة علــى النهر الاحمر . على بعد ١٢٥ ميلا شمال غربى هانوى ، وفى حركة العصيان هذه ، قتل جنود الحامية الأنامبون ضـباطهم الفرنسيين واحتلوا طرقا مختلفة ، وقد نسبت الى حزب فيتنام كوان دان دانج .. وفى الوقت الذى أذيعت فيه آنباء المظاهرات المعادية للفرنسيين فى كل مكان فى الشمال ، وفى الوقت الذى قمع فيه جنود الفرقة الأجنبية ، من هانوى ، العصاة بقسوة بالغة ، نقول انه فى خلال كل هذا ، ثار الفلاحون .. وكانت حركة الزراع موجهة ضد ملاك الأراضى الذين كانوا فى الأغلب موالين للفرنسيين . وفى مقاطعتين من مقاطعات انام ، حاول الشـيوعيون اقامة حكومة ثورية ، وهى صدى للاحداث المعـاصرة فى المقاطعتين الصـينيتين : هونان وكيانجس ..

وقد أطلقت الصحافة الفرنسية على عام ١٩٣٠ (عام الارهاب الاحمر) ، ويمكن للمرء فى الواقع أن يسميه (عام الارهاب الابيض) لأنه عندما طهر الجنود الفرنسيون فى عام ١٩٣٠ وعـام ١٩٣١ ، ألقى القبض عـلى كثير من الوطنيين وقتلوا .. وكان الموقف فى الهند الصينية كثير الشبه بالموقف فى اندونيسيا .. حيث اختفى الحزب الشيوعى الاندونيسى وحزب (بيسيريكانان ناسـيونال اندونيسيا) ..

وفى سايجون وكوشين صين ، لا فى هانوى ، اقيمت الأحزاب الوطنية من جديد ، حيث بلغت الامور مرحلة أثار لها الوطنيون .. وقد لقيت حركة الحرية ، فى مستعمرات فرنسا ، فيما وراء البحار التشجيع بفضل قيام الجبهة الشعبية (١٩٣٦ - ١٩٣٨) ، ولم تجد مثل هذا التشجيع فى اندونيسيا مثلا ، لأن حكومات الجبهـة

الشعبية لم تعد قادرة على تغيير عقلية المسئولين والضباط فى الهند الصينية ، كما لم تكن قادرة على الحيلولة دون انهيار الديمقراطية فى الحرب الأهلية الاسبانية ٠٠ وبينما كانت كلمات الوزير الاشتراكى للمستعمرات تنفس الآمال ٠٠ فانه لم يحدث فى الهند الصينية شيء يمكن أن يوصف بأنه اجراء اشتراكى ، فيما خلا اطلاق سراح الكثيرين من المعتقلين ٠

وعلى كل حال ، فقد ظفرت الحركة الوطنية بشيء من حرية العمل وافاق حزب (فيتنام كوان دان دانج) من اعتقالات ينباى ٠٠ وظهرت حركة ثانية ، لها اهميتها فى كوشين صين ، ونعنى بها (الكودية) وهى بوذية عصرية ، وقد انضمت اليها عناصر من ديانات اخرى ، غربية وشرقية ٠٠ وكانت أصلا حركة غير سياسية لموظف وطنى فى الحكومة واسمه (نجوفانشين) ولكنها انقلبت بين عام ١٩٣٦ وعام ١٩٤١ الى حزب وطنى يمينى كان يميل الى اليابانيين شيئاما ٠٠ وكان زعيم الحزب فى تلك الفترة هو (فام كونج تاك من كوشين صين) وقد نفى الى مدغشقر ، وأقام اليساريون الاشتراكيون حزبهم من جديد ٠٠

وفى الوقت الذى كان فيه هوشى منه فى الخارج (فى تايلاند وسنغافوره والصين والاتحاد السوفينى وغير ذلك) راح تران فان جيو ، المولود فى عام ١٩١١) والذى اتخذ اسما للشهرة هو هو نام) يعيد تنظيم الحزب الاشتراكى ٠٠ وعندما كان طالبا ، منع من دخول فرنسا بسبب اشتراكه فى أعمال الاثارة فى الفترة التى أوقفت فيها حركة تمرد ينباى ٠٠ فذهب الى موسكو ، حيث درس فى جامعة لينين ، فى الفترة المحصورة بين عام ١٩٣١ وعام ١٩٣٣ وفى العام الأخير عاد الى الهند الصينية ، وجعل الحزب الشيوعى هناك من أكبر الأحزاب فى جنوب شرقى آسيا ، أما وقد نشأ أصلا فى سايجون ، فقد بدأ اتجاه موال لاتجاهات تروتسكى ينتشر ٠ وكان له اهمية كبيرة. وكان زعيمه تاتوتان (١٩١٠ ـ ١٩٤٥)

الذى طرد من فرنسا عندما كان طالبا ، وفى الوقت نفســه ، لم يفعل باوداى ، المولود فى عام ١٩١٣ ، والذى ظل امبراطورا لاناما من عام ١٩٢٦ الى عام ١٩٤٥ ، شيئا لخدمة قضيةاستقلال الهند الصينية وذلك بالرغم من ميــوله انعصرية نسبيا ، وكانوا يطلقون عليه اسم ملك نوادى الليل وملك فيتنام فيما بعد ٠٠ وبالرغم من انه ادخل اصلاحات ادارية قليلة ، ونفى كثيرين من موظفى البــلاط ، ذوى العقلية العتيقة ، ظل اساسا فى المعسكر الفرنسى ٠

وانتهت الفترة الثالثة لتاريخ الهند الصينية الحديثة بهزيمــة الفرنسيين فى عام ١٩٤٠ ، ففى ١٠ مايو احتلت الجيوش الألمانية هولندا وبلجيكا ٠٠ ثم فرنسا بعد ذلك بأسابيع قليلة ٠٠ وفى ٢٢ يونيو استسلمت فرنسا ٠ وفى المنطقــة غير المحتلة قامت حكومة فاشية جديدة فى فيشى بيتان ، وحاولت ان تظل فى الجانب الايمن للالمان ٠٠ وفى يونيو ، أمر الحاكم العام للهند الصينية كاترو ، بمنع حركة المرور الى الصــين ، على خط السكة الحــديد ، من هايفونج الى كونيمنج ، وذلك تحت ضغط اليابانيين ،ولكنه لـم يشأ أن يجاوز هذا الحد ، ولهذا ارسلت فيشى خليفة له وهــو (الكيرئ) وبعد من اتباع بيتان ، ولم يبد هذا الرجل مقاومة من اى نوع لطوكيو (أغسطس ـ سبتمبر ١٩٤٠) وكانت فرنسا ، من الناحية النظرية ، مازالت ذات سيادة ، وظل الموظفون الفرنسيون فى مناصبهم ، ولم يعتقل أحد من المدنيين الفرنســيين ، ولكن لم يوضع حد لسلطة طوكيو ، كانت السفن الحربية اليابانية تظهــر فى الموانى ٠٠ وفى صيف عام ١٩٤١ ، عندما كانت المانيا تغــزو روسيا ، احتلت فرقتان من القوات اليابانية البلاد ٠٠ وكان هذا بداية لغزو تايلاند وغزو سنغافورة واندونيسيا فى عام ١٩٤٢ ٠

قال سوكارنو مرة : ان التاريخ والثورة شىء واحد ٠٠ فاذاكنا نقصد بكلمة ثورة شيئا بعيدا عن مجرد معارك الشوارع واعمال النهب ، من الواضح ان للكلمة ، كمفهوم تاريخى ، مغزى اعظــم

بكثير ـ فاننا نكون قد عبرنا عن حقيقة معينة ، ومن ثم نستطيع أن نعد تاريخ آسيا بالفعل كثورة واحدة •

إن بلدا مثل الملايو يثير الاهتمام بوجه خاص . بوصفه استثناء للقاعدة •• وقد بحثنا هذه النقطة في معالجتنا للفترة المحصورة بين ١٩٠٠ و١٩١٤ ، ولم يكن منهج الثورة الوطنية ولا ما حققته من أعمال في الملايو مماثلا لما وقع في الدول الاسيوية الأخرى ذات الأهمية •• كيف أمكن للبريطانيين أن يبقوا في الملايو ولماذا رغب البريطانيون في البقاء بأى ثمن ؟ ولماذا لم يكن الاحتلال الياباني اشارة وبداية للاستقلال ؟ ولماذا كانت الملايو في الفترة المحصورة بين ١٩١٩ و١٩٤١ اقل نضجا من الناحية السياسية ، للتغيير من اية دولة أخرى في آسيا الجنوبية الشرقية ؟•• ان العوامل المختلفة في حالتها هذه •• قد عولجت : صغر حجم البلاد النسبى وتشتت سكانها ، واهميتها الاقتصادية والاستراتيجية الخاصة والتفرقة العنصرية الى ملاويين وصينيين وهنود . ان تأثير كل عامل من هذه العوامل قد ازداد في الفترة التى توسطت بين الحربين •

اذا نظرنا الى خريطة آسيا وجدنا أن الملايو شبه جزيرة صغيرة لا تزيد مساحتها عن جاوه •• وكان عدد سكانها في عام ١٩٣٠ بما فيها سنغافورة ، حوالى ٤٫٢٠٠٫٠٠٠ ، وفي عام ١٩٣٩ صار العدد حوالى ٥٫٥٠٠٫٠٠٠ ، واليوم ٦٫٥٠٠٫٠٠٠ ، والسيطرة على بلد صغير كهذا ، بمثل هذا العدد الصغير من السكان ، لا تتطلب جيشا كبيرا •• ومن ناحية أخرى ـ وهذا ما يفسر السياسة البريطانية بعض الشيء ـ فان سنغافورة ، القاعدة البحرية البريطانية في شرق آسيا والتى تعد « جبل طارق » آسيا وقلعة الإستعمار التى لا تقهر هناك كانت جزءا من شبه الجزيرة• والبقعة التى كانت قرية ملاوية في عام ١٨٢٠ ، صارت تحت الحكم البريطانى ثالث الموانى العظمى ومركزا من أكبر المراكز التجارية في آسيا وميناء الصادر بالنسبة للسلع التى تصدرها

الملايو : القصدير مثلا والمطاط ، فوق كل شيء ، وهو نتاج شجرة ما في البرازيل مع راس المال والمشروعات البريطانية ، والعبقرية الأمريكية وعرق الكثيرين من العمال الصينيين والهنود والملاويين ..

وفي عام ١٨٧٥ ، عندما بدأ البريطانيون في السعي الى الداخل . من قرى تجارية قليلة على الساحل ، لم يكن هناك شيء اسمه شجرة المطاط .. حقيقة انه في عام ١٨٦٤ نبتت في جاوه شجرة المطاط البرية في مزارع قليلة .. أما شجرة المطاط الأصلية اذا استخدمنا التعبير الفني ، فلم تزرع الا في أمريكا الجنوبية ، في وادي الامزون .

وفي أوائل القرن الثامن عشر حصل مسافر فرنسي من الهنود على عصير الشجرة اللبني واخذه الى أوروبا ، ولكن في سنة ١٨٣٩ ، لا قبل ذلك ، نجح تشارلس جوديير الأمريكي . بفضل التجارب الكيميائية الأولية ، في انتاج المطاط الحديث من المطاط اللزج وذلك بخلطه بالكبريت .. وتنبهت الحكومة البرازيلية الى أهمية هذا ومنعت تصدير اشجار المطاط

وفي عام ١٨٧١ نشر عالم النبات الانجليزي هنري ويكهام تقريرا عن تجاربه في أثناء تنقلاته في غابات البرازيل .. قرأ مدير حدائق علوم النبات في كيو ، قرب لندن ، هذا التقرير وارسل ملاحظاته عليه الى الحكومة البريطانية .. وفي عام١٨٧٦ هرب ويكهام بذور هذا النبات المشتهى ، من البرازيل ، وزرع الزراع المجربون وعلماء النبات ، اشجارا من البذور في الملايو وسيلان وباندونج .. وفي عام ١٩٠٠ ، وصلت الرقعة الاولى من مطاط مزارعهم ، وهي ١٧٤ طنا ، الى لندن .. وفي عام ١٩١٤ ، أمكن الحصول على قدر من المطاط ، من هذه المزارع ، يعادل ما تحصل عليه البرازيل من اشجارها البرية .. وفي عام ١٩٢٢ ، صدر البريطانيون والهولنديون ٩٠ في المائة من مطاط العالم .

من جنوب شرقى آسيا ٠٠ وفى خـــلال الفترة ما بين الحربين أنتجت الملايو وحدها ٤٠ فى المائة ٠٠

ان أربعة أخماس الملايو غابات وجبال لاطرق فيها، ومستنقعات ولكن ٨٠ فى المائة من الارض الزراعية تشمل مزارع تنتج المطاط وجوز الهند والموز وغير ذلك من المنتجات الغربية ، وتعد الملايو مستعمرة مثالية لأنها تنتج بالاضافة الى هذا ، ثلث قصدير العالم

كل هذا والمطاط والقصدير وسنغافورة ، منـــــع بريطانيا من الانسحاب بمحض اختيارها ٠٠ وفى الوقت نفسه كانت الملايـو فردوسا للمهاجرين الهنود والصينيين كما كانت أمريكا الشمالية فردوسا للكثيرين من المهاجرين من جنـوب وشرق أوروبا ، وفى سنة ١٩٢٩ ، كان الصينيون يؤلفون ٤٠ فى المائة من السكان ، وكان الهنود يؤلفون ١٥ فى المائة . ولكن المهاجرين الى الملايو ــ على عكس ما حـــــدث فى أمريكا ــ لم يكونوا مستعدين للامتزاج بالسكان الوطنيين ٠٠ كان الصينيون عمالا بمناجم القصدير ٠٠ وصاروا زراعا صغارا وأصبحوا كذلك ملاكا للمنـاجم والمزارع ، وتجارا رأسماليين ٠٠ وكانت سنغافورة ، فى الأغلب ، مدينـــة حديثة ، وصار الهنود عمالا فى المزارع والسكك الحديدية وعمالا للطرق كذلك ٠٠ ولكن الفريقين ظلا من الأجانب وهما منفصـلان بقوة عن الملايو ويعتزان بأمل العودة يوما ما ، الى الصين والهند وكانت هذه الفرقة بين المهاجرين ، والهوة بينهم وبين الوطنيين ، بين البوذيين والمسلمين والهندوس ٠٠ مما مكن للبريطانيين البقاء وحتى لو عجزوا عن قمع الأفكار الداعية الى استقلال الملايو المتحدة ٠٠ فانهم بالتأكيد حالوا بينها وبين الانتشار ، الى حد كبير ٠

ان الروح الثورية السياسية التى كانت قائمة قبـــل الحرب العالمية الثانية انما كان آتية من الصين ٠ ٠ولم يكـــن لهــــا تأثير على الملاويين ٠٠ أن الحزب الشيوعى فى الملايو ، وقد تأسس

فى حوالى سنة ١٩٢٥ » ، وهو نواة المقاومة لليابانيين وللبريطانيين فيما بعد كان صينيا خالصا ، باستثناء قلة من المثقفين الملاويين .. وكان افكار الكومنتانج ، التى جاء بها بعض الصينيين لم تثر اهتمام الملاويين ، كما ان الحركة الاسلامية الصغيرة نسبيا لم تكن تهم الصينيين .

وقد حاولت أحزاب مختلفة وزعماء فرادى أن يوحدوا العناصر المتباينة من السكان ، كالحزب الشيوعى مثلا ، والمثقفين الصينيين وبارون المطاط « تان شينج لوك » والصحفى الملاوى الارستقراطى (دانو أون بن جعفر) الا ان الوطنية الملاوية ظلت مجرد ظل لما كانت عليه الوطنية فى اندونيسيا أو الفلبيين أو الهند الصينية ..

والملايو صورة ومثل لحقيقة مؤداها أن صبغ بلد بالصبغة العصرية الصادقة ورفع المستوى الاقتصادى لا يكفيان فى ذاتهما لخلق شعب .. ان الوطنية ـ بعيدة عما عداها من أمور أخرى ـ انما هى احساس بالولاء للدولة ، بدلا من صنوف الولاء السابقة للقرية وللاسرة وللجماعة الدينية وللامير .. وفى الملايو ما زالت المسألة مسألة بوذى أو مسلم ، صينى أو هندى أو ملاوى .. وبطبيعة الحال ستصبح الملايو فى مجرى الأحداث ، دولة مستقلة استقلالا صحيحا .. أما السؤال الخاص : أى نوع من البلاد سوف تصير ، فان الاجابة عليه أصعب من الاجابة على سؤال يتعلق بأى بلد أسيوى آخر .

كذلك تعرضت تايلاند لحروب وثورات تقل عما تعرضت له عدة بلاد اسيوية أخرى فى خلال هذه الفترة ، بالرغم من انها من الناحية الرسمية ، أى بالمعنى الدبلوماسى ، كانت من بين الدول المحاربة فى الحربين العالميتين كلتيهما ، وفى خلال الفترة الاستعمارية كلها ظلت كذلك دولة مستقلة بين جاراتها المقهورات ..

ومن بين الأسباب التى جعلت تايلاند تحتفظ باستقلالهـا التنافس بين بريطانيا وفرنسا ، بينما كانتا توسعان نطاق حكمهما فى ذلك الجزء من العـالم .. كانت تايلاند منطقـة عازلة بين البريطانيين فى بورما والفرنسيين فى الهند الصينية . وكانت فى مركز كبير الشبه بمركز أفغانستان بين الاسـتعمار البريطانى والروسى .. وفى سنة ١٩١٩ انتهت الفترة الكلاسيكية للاستعمار الاوروبى .. وقسمت المستعمرات الالمانية فى افريقيا والباسفيكى .. وكانت الحرية التى حصل عليها العرب محـدودة ، ولكن لم تكن هناك مستعمرة جديدة بالمعنى القديم للكلمة والاستثناء الوحيد هو الحبشة ، التى كانت ايطاليا قد ضمتها فى سنة ١٩٣٦ .

ولم تكن هناك حقول نفط فى تايلاند .. انها لا تقـع عبر طريق روسيا الى البحر كما تقع ايران . التى كان استقلالها شكليا بحتا . ومن الامور التى لهـا مغزاها ان تايلاند كانت آخر دولة تعترف بالاتحاد السوفييتى فى سنة ١٩٣٦ .

وظلت تايلاند ، زمنا طويلا ، معفاة من التغلغل الغربى . حتى ولو كان هذا التغلغل فى صـورة أفكار عصرية واقتصـاديات رأسمالية .. وبينما كانت الثورة شاملة فى آسـيا بلت ، أرض الحرية ، فى عام ١٩٢٠ وكأنها دولة اقطاعية اسيوية نموذجيـة ، بمعنى انها لم تتغير تغيرا ماديا فى طابعها ، عما كانت عليه فى منتصف القرن الرابع عشر ، وبطبيعة الحال ، كانت قد اصطبغت بالصبغة الحديثة ، الى حد ما ، ولا سيما فى خـلال حكم شوا لالونجكورن . ولكن اصلاحاته كانت على غرار الاصـلاحات التى تمت فى تركيا فى القرن التاسع عشر ، بمعنى أنهـا كانت فى أكثرها ، خارجية وقتية ومحدودة حـداً ، وكان ملوك تايلاند مهتمين باقتصاديات وتكنولوجية الغرب ، كوسيلة للدفاع ضـد التوسع الغربى وضد التغير فى الداخل .. وكان يتحتم عـلى الجنود المصريين أن يعرفوا القراءة والكتابة .. والجيش الحديث

يجب أن يكون محصنا ، بقدر المستطاع ، ضد الطاعون والملاريا ..
ولم تكفل دبابات حامية بانجكوك ومدافع الاسطول السيامى الملكى سيادة البلاد فحسب ، بل كفلت كذلك الحكم المطلق للملك ولنظام من الحكم شبيه بنظام العصور الوسطى الذى ترمز اليه العلاقات العائلية بين الملك وطبقة النبلاء الحاكمة ، وقد انبثقت تلك العلاقات أصلا من النظام الملكى فى العصور السابقة .

ان تايلاند الحديثة لم تكن ، على وجه خاص ، تحكم حكما ديمقراطيا ، بالرغم من أنه فى تلك الفترة نشأت حركة ديمقراطية هامة ، وتولى وزارة الخارجية رجل ذو آراء اشتراكية هو «بريدى» .. الا أن بيبول سونجرام ، وزير الدفاع اليمينى المتطرف وأعوانه اعتقدوا أن الحكومة تميل الى الفاشية .

وفى حوالى عام ١٩٣٧ ، شرعت تايلاند فى المضى مع التيار اليابانى .. ان العناصر اليسارية القليلة فى الحكومة .. وآخرهم بريدى نفسه ، قد أمكن التخلص منهم بعد أن صار الفيلد مارشال بيبول سونجرام ، الرجل الميال للعدوان ، رئيسا للوزراء (١٩٣٨ ـ ١٩٤٤) وقد غير اسم البلد من سيام الى موانج تاى « أرض الحرية » تخليدا لذكرى فترة التوسع الممتدة من القرن الرابع عشر الى القرن التاسع عشر .. وبعد أن هزمت المانيا فرنسا ، وبعد أن دخل اليابانيون الهند الصينية ، ضم هو الأراضى التى تجاوز الحدود الشرقية القائمة (آنئذ) أى بمقتضى معاهدة طوكيو الموقعة فى ٩ مايو سنة ١٩٤١ ، وعندما نشبت الحرب فى ٨ ديسمبر سنة ١٩٤١ ، فى شرق آسيا والباسفيكى ، أرسل اليابانيون انذارا الى بانجكوك .. وصدرت الأوامر الى الجيش بالا يقاوم الا مقاومة رمزية .. وفى الغرب الأقصى ، من الوطن الاوروبى ، كان الألمان يحاصرون ليننجراد ويهددون موسكو ، وكان الاسطول الامريكى فى الباسفيكى يحترق فى بيرل هاربور ، وفى تايلاند (سيام) كان اليابانيون يمضون فى زحفهم دون أن يتعرض لهم أحد .

٥

الهند وباكستان

ما الذى تتوقعه الهند البريطانية من التاريخ ، فى الفترة التى تعالجها الآن ؟ ان مساحتها كبيرة جدا الى حد تجاوز المـألوف (١٫٥٠٠٫٠٠٠ ميل مربع) . ولا يزيد عنها سوى الاتحـاد السوفيتى والصين ، وعدد سكانها كبير ، ثلث الاسيويين جميعا ، ولها اهميتها من الناحية الدولية بحيث نقسم حديثنا عنها الى جزءين ، كما فعلنا فى الحديث عن الصين ، بل فى الواقع الى ثلاثة اجزاء ، لأننا سنعالج بورما فى فصل خاص ، لأسباب نذكرها فيما بعـد .

ان ما نحاوله فى هذا الكتاب هو ان نروى تاريخ الحركـة الاستقلالية ، فى بلدان مختلفة ، ومن ثـم فـان من الضرورى أن نعالج التطـور حسب ترتيب الوقائع ، وهـذا أمـر سهل ، فيما يتعلق بحالة الهند البريطانية . وسنميز ، كما فعل بالم دات ، فى كتابه « الهند اليوم » بين موجات المقاومة الثـلاث الكبرى فى القرن العشرين – من ١٩٠٥ – ١٩١٠ – فترة التيلاك ، وانشاء الرابطة الاسلامية ، وفى الخارج ، فترة الثورة الروسـية الأولى والحرب الروسية اليابانية ، ومن ١٩١٠ – ١٩١٢ ، وهى الفترة التى ثار فيها العمال والشعوب المستعمرة فى أوروبا وآسيا بوجه عام ، نتيجة الحرب العالمية الأولى ، وسنترك جانبا الأعوام المحصورة بين ١٩٢٧ ١٩٤١ ، والفترة المحصـورة بين ١٩٣٠ و١٩٣٤ وهى التى تعد من الناحية الدولية فترة الأزمة الاقتصادية الكبرى فى العالم الرأسمالى والتوسع الألمانى والايطالى واليابانى

وبداية الحرب العالمية الثانية ، وقد تكهن القلائل من الرجال ، ذوى النظر البعيد ، بحتميتها فى تلك الأعوام

وننوى فى هذا الفصل ، ان نعالج الأحداث التى وقعت فى الفترة ما بين ١٩١٠ و١٩٢٢ ، وما ترتب عليها حتى أول يناير سنة ١٩٣٠ . وقد سبق لنا ان وضعنا الأحداث الثورية التى صاحبت نهاية الحرب العالمية الأولى فى الهند البريطانية ، ومن بينها الأحداث المؤلمة مثل وباء الانفلونزا وقانون رولان ،الذى وضع بطريقة متعجلة وغير مكتملة ، والذى صدر فى مارس سنة ١٩١٩، ثم حملة غاندى الأولى وحمام الدم فى امريسار فى ابريل سنة ١٩١٩ .. كل هذه الأحداث قد اجتمعت لتدفع بالحركة الاستقلالية الى اتجاهات جديدة . وفى ٨ سبتمبر سنة ١٩٢٠ بدأ غاندى حملته الأولى « ساتياجراها » ومعناها المقاومة السلبية ، واعلن مقاطعة السلع البريطانية بعد يوم من الحداد ويوم من الصيام والتأمل ، وكجزء من الحملة ، قاطع البورجوازيون الانتخابات ، فقد رفض ثلثا الهنود البالغ عددهم ٦٠٠٠٠٠٠ ممن خول لهم قانون الحكومة الهندية الصادر فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٩١٩ حق الانتخاب باعتبار انهم يملكون وسائل كافية وقدرا كافيا من التعليم ، الذهاب الى صناديق الانتخاب ، وكخطوة هامة فى حملة المقاطعة ، طلب غاندى من الفلاحين وسكان المدن ان يقوموا فى بيوتهم بغزل ونسج القطن الذى تنتجه البلاد ليصنعوا منه الخادى او الثوب الأبيض الخام ، عوضا عن انتاج المصانع البريطانية واليابانية ، وسرت الحركة فى مدن الهند والباكستان وفى القرى البالغ عددها ٧٠٠٠٠٠ قرية ، كما تسرى نار الغابات ، فى جو صاف ، ولم تتأثر الأقاليم الهندية وحدها بهذا ، بل ان المسلمين ، وقد أغضبهم تقسيم تركيا ، لم يتخلفوا عن الحملة ، وكانت الاضرابات التى وقعت فى ١٩٢٠ ــ ١٩٢١ ، ولا سيما فى مصانع القطن فى بومباى، وفى المناجم والسكك الحديدية ، مما أثبت بجلاء ان الطبقة العاملة انضمت الى الحركة الاستقلالية .

وفى عام ١٩٢١ بلغت الثورة ذروتها وبلغت كذلك أزمتها ، فعلى نقيض شعار غاندى ، من المقاومة السلبية ، وجد شعور المرارة الوطنى متنفسا له فى أعمال العنف التى لاحصر لها ، وكانت فى الأغلب مستوحاة بوعى من اعمال الثوار الروس والوطنين الايرلنديين فى القرن التاسع ، ففى ايرلندا ، وكانا آنئذ شبه مستعمرة بريطانية ، أرغمت الحركة الوطنية المتطرفة (سن فاين) البريطانيين على دخول حرب أهلية ضارية (١٩١٩ ـ ١٩٢٣) .

وفى مناطق عدة ، ثار الزراع على ملاك الأراضى ، وفى ملابار ، ثار الزراع المسلمون ضد أصحاب الأراضى الهنود ، كما حدث فى ثورة موبلاه ، وقد زادت روح العداء بين الهندوس والمسلمين فى شتاء عام ١٩٢١ حالة الفوضى سوءا فى شبه القارة ، ان لم تكن سببا من اسبابها ، وفى الوقت نفسه ، ألقى القبض على زعيمى الرابطة الاسلامية الهندية ، محمد وشوكت على (فى سبتمبر ١٩٢١) وزج بهما فى السجن لمدة عامين .

وفى تلك الفترة ، قام أمير ويلز بجولة عامة فى الهند ؛

وقد أثار الجو الذى احاط بهذه الزيارة ذكريات سنة ١٨٥٧ ، وفزعت الحكومة ، اعتقل اناس كثيرون ، ٤٠٠٠٠ فى ديسمبر ويناير ، ولم يفلت من الاعتقال ، من الزعماء البارزين سوى غاندى وقد علموا فى السجن الأحداث التى وقعت ، عن طريق الصحف الخاضعة للرقابة وشائعات السجن ، وفى ٤ فبراير سنة ١٩٢٢ ، احرق جمهور من الفلاحين مركز البوليس فى شورى شورا ، وهى قرية صغيرة فى الأقاليم المتحدة ، وقتل ٢٢ رجلا من رجال البوليس ، بعضهم بريطانيون ، وغضب غاندى ، وخشى أن يفلت الزمام ، ويضعف أثر المقاطعة ، وأمر بوقف المقاومة الايجابية ، ومن ثم خفت أعمال العنف ، ولكنه هو نفسه اعتقل وسجن (١١ مارس ١٩٢٢ الى ٤ فبراير ١٩٢٤) فهل كانت خطته فيما يتعلق بحادث شورى شورا خاطئة كما ظن جواهر لال نهرو وآخرون ؟

هل كان من الحكمة وقف الحركة جميعا ، فى سبيل الحرية ؟ بسبب اشتباك وقع فى قرية نائية) طبعا لا .. ولكنه يبدو انه خشى بالحدس أن تصبح الحركة ثورية جدا ، وان تتطور الى ثورة للعمال والزراع ، من ناحية وخشى ، من ناحية أخرى ، انهيار حملته المناهضة للبريطانيين . ومازال السؤال يتردد : الى اى مدى يمكن ان يعد انهاء المقاطعة هزيمة او ما اذا كان بالاحرى دليلا على نفوذ غاندى ، غير العادى ، على مواطنيه ، كما يرى الغرب .

ان اثر الأحداث التى وقعت لم يكن مقصورا على حزب المؤتمر : فكثيرون من البورجوازيين الهنود ـ وهم قاعدة الحزب ـ بدأوا يميلون اكثر فأكثر الى السياسة المعتدلة . وفى خريف سنة ١٩٢٣ ، ظفر المعتدلون بالأغلبية فى المؤتمر (من حوالى ١٩٢٣ ـ ١٩٣٠) وهذا الفريق ، وهو حزب سواراج الذى كان ينتمى اليه س.و. داس وموتيلالا نهرو ، أوقف مقاطعة الانتخابات ، وحاول ، بفضل وسائل الاعاقة المسموح بها ، ان ينتزع من البريطانيين وضع الدومينيون (سواراج معناها الحكم الذاتى). الا أن انتهاج مبدأ الاعتدال على هذا النحو يجب الا يفسر بأنه علامة ضعف ، أو انه اضعف الرغبة فى الاستقلال ، من جانب الوطنيين ، ممن هم على شاكلة هذين الشخصين ، فقد اضرب داس عن الطعام فى السجن ، فى سنة ١٩٢٥ ، وصار موتيلال نهرو والد جواهر لال ، بوصفه رئيسا لحزب المؤتمر فى الأعوام ما بين ١٩٢٤ و ١٩٢٩ ، يقول انه صار باطراد أكثر ثورية ، وكرس وقته ونشاطه كله لتحرير الهند ، حتى اللحظة الاخيرة ، قبل موته فى عام ١٩٣١ ، سواء أكان فى السجن ام خارجه .

واذا رجعنا القهقرى ، نلاحظ تغييرات فى الحركة ، اننا الآن فى المرحلة الثالثة من يقظة الهند ، ففى المرحلة الاولى كانت هناك العناصر الاقطاعية والارستقراطية فقط ، وبعد ذلك اى من ١٨٩٥ الى ١٩٠٦ كانت هناك طبقة التجار المتوسطة الغنية : والمثقفون الموالون للغرب الذين وضعوا طابعهم على الحركة الوطنية ، والآن

أصبح العمال والفلاحون العنصر الهام مع أولئك الوطنيين الذين كانوا يعملون في الصناعة ، وقد حلت اللغة الهندية محل الانجليزية في مناقشات حزب المؤتمر •

ان اشتراك الفلاحين والعمال في الحركة الوطنية قد حولها من ريح خفيفة الى عاصفة ولكنه شطرها كذلك ، ولوحظ على الفور ان الصراع الطبقي بين أصحاب الأراضي والفلاحين والعمال الذين يعملون في الأرض وبين اصحاب الصناعات والعمال لم يكن من اختراع الماركسية ، وقد خشي الرأسماليون في بومباي وكلكتا وغيرهما من المراكز الصناعية الأخرى ازدياد سطوة العمال ، كما خشي أصحاب الأراضي ازدياد سطوة الزراع ، وكثيرون منهم وقد رأوا ان العناصر الحمراء في الحركة ، تزداد احمرارا باطراد ،خانوا بلادهم بشكل يدعو الى الخجل ، وهذه الكلمات العنيفة هي كلمات جواهر لال نهرو نفسه •

وكما كان جوكال وتيلاك هما اللذان حفزا للمرحله الاولى من الحركة الوطنية ، فكذلك في خلال الفترة ما بين الحربين كان المثقفون البورجوازيون همالذين يتولونالزعامة ومن بينهم القاضي الأعظم محمد على جناح (١٨٧٨ ــ ١٩٤٨) وكان شخصيةدولية. بدا حياته طالبا في بريطانيا ، وعمل في لندن وبومباي وانضم الى الحركة الوطنية الاسلامية في عام ١٩١٣ ؛ وفي اثناء الحرب شغل منصبا عاليا فيها ، وبوصفه زعيما للرابطة الاسلامية الهندية ، صار في عام ١٩٤٧ حاكما عاما « لدومنيون » الباكستان ، ولما كان مسلما متمسكا بدينه ونشيطا ــ ولنذكر مشروعه في عام ١٩٤٠ عن تقسيم الهند ــ فانه كان يلقى الاحترام بوجه عام من الدوائر الهندية ، أما الزعماء الهنود في حزب المؤتمر فكان أبرزهم : شيتا رانجان داس (١٨٧٠ ــ ١٩٢٥) والبانديت موتيلال نهرو (١٨٦١ ــ ١٩٢١) ومالابهاى باتل (١٨٧٥ ــ ١٩٥٠) وشاكرافرتي راجا جوبالسارى (المولود في ١٨٨٤) الذي صار وزيرا هنديا للداخلية وراجندرا براساد (١٨٨٤) رئيس جمهورية الهند (بعدالاستقلال)

والاشتراكيين سوبهاس شاندرابوس (١٨٩٧ ـ ١٩٤٥) والبانديت جواهر لال نهرو (المولود فى ١٨٨٩) رئيس وزراء الهند ووزير الخارجية ، واعظم الوطنيين الهنود حتى ولو يوهب الخصائص الدينية لغاندى .

ان أولئك الذين لايعرفون « مهانداس كراشـــــاندغاندى » (١٨٦٩ ـ ١٩٤٨) الا من كتاباته أى من الكتاب الذى كتبه عن نفسه « تاريخ تجربتى مع الحقيقة » (١٩٢٧ ـ ١٩٢٩) لايظفرون الا بنظرة شوهاء عن أهميته السياسية . انه كثيرا مايبدو فى كتبه بأنه مجموعة من المتناقضات ، جمعت فى ناسك مثالى مضطرب ، لم يفهم على حقيقته ، سواء فى الهند أو فى الخارج ، ولكنه يظهر من التاريخ ،أى من كتب الآخرين ومذكراتهم ومن الوثائق الرسمية شـــخصية مختلفة تمام الاختلاف . شخصية الثورى الدبلوماسى والثائر العظيم ضد البريطانيين ، والرجل الذى بعث الهنـــد والباكستان الحديثة الى الحياة وبالرغم من فلسفته المضطربة ، فانه ترك طابعه على الفترة ، وعندما بدأ المرحلة الاولى من مراحل نشاطه ، فى سنة ١٩١٩ ، ظهر وكأنه نوع من الرذاذ الرقيق الذى يبعث الحياة فى حديقة جافة ، لقد غير الجو كله فى البلاد ، وقد بدت وكأنها وجدت نفسها من جديد . السنا نعد مسألة ايقـاظ آسيا بمثابة اكتشاف لمواردها الثقافية الوطنية الخاصة ، ويعد هذا ردا على تحدى المدنية الغربية فى المجال الاقتصادى والمجـال الثقافى على السواء ؟

لقد كان من النتائج الطبيعية لزحف الاستعمار الى آســـيا الصراع بين اساليب الانتاج الوطنية البدائية وبين أساليب البلاد الراسمالية التى بلغت شأوا عاليا من التطور ، ونقصـــــد المعنى الاقتصادى البحت ، لا المعنى الادبى أو الثقافى أو الفنى . ونحن نصف الوسائل الراسمالية ، عند مقارنتها بالوسائل الوطنيـــة البدائية ، بأنها وسائل بلغت شأوا عاليا من التقدم والرقى ، لأنه بالنسبة للأولى يزيد الانتاج ، وتزيد السلع المصنوعة ، بالنسـبة

للزارع الواحد وللعامل وللفدان . أن التقدم الغربى معناه التغلغل الاقتصادى . اى أن التجـارة هى اصلا السبب الوحيد الذى من أجله اهتمت أوروبا بآسيا ،والتبادل التجارى بين دولةاستعمارية ومستعمراتها يعنى فى الأغلب استغلالها ، وهذا هو الذى جعـل مانشستر مدينة عظيمة ، وهو الذى جعل الثورة الصـناعية فى بريطانية ، والدول الأخرى من اوروبا الغربية أمرا ممكنا . لقد أخترعت الآلة البخارية ، وهى من ابتكار رجل اسكتلندى اسمه جيمس وات ، فى حوالى ١٧٧٠ . وأنشئت المصانع . والمصـانع شرهة لاتقنع . ان السفن البريطانية تجلب القطن الخام من الهند ثم ترسل منتجات المصانع الانجليزية والاسكتلندية الى البـلاد ، والنتائج معروفة وان كانت ليست معروفة بقدر كاف ; فقد طرد من السوق الانتاج البدائى الوطنى القائم على الصناعة اليدوية ، (١٨٥٠ - ١٨٨٠) . ولا سيما غزل القطن ونسجه فى القرى ، وجلبت السلع القطنية الرخيصة لا الى الهند وحدها ، بل الى كل جهة اخرى . وكانت النتيجة ان الفلاحـين . وهم ثلاثة أرباع السكان ، صاروا بلا عمل لمدة اربعة أو خمسة شهور فى السنة ; ولم يكن لديهم مايأكلونه سوى القليل .

وفى أوروبا الغربية والولايات المتحدة كان قد امكن تعويض اختفاء الوسائل القديمة للانتاج ، كقاعدة ، بالزيادة الضـخمة فى المصانع ، وصار جزء من الزراع عمالا فى المصانع وكان هذا هو الحال فى البلاد التى صارت الزراعة فيها ، فى الوقت نفسـه ، تستعين بالآلات الميكانيكية،ان آلات الحصاد الأمريكية«ماكورميك» - وقد بلغ عدد المستعمل منها فى الولايات المتحدة ٢٥٠,٠٠٠ فى عام ١٨٦٠ - يرجع تاريخها الى عام ١٨٤٠ ; كما أن الجـرار البخارى وآلة الدراس البخارية يرجع تاريخهما الى عام ١٨٨٠ .

اما فى الهند البريطانية - شأنها شان اندونيسيا وهى تحت الحكم الهولندى - فان العراقيل وضعت عمدا فى طريق نمـو الصناعة الوطنية ، خشية أن تكون خطرا على الصناعات الاوروبية

وكان تصنيع الهند وباكستان دون مستوى الصين ، وفى خلال الفترة المحصورة بين عام ١٨٥٠ وعصرنا الحاضر أخذت نسبة العمال الزراعيين فى أوروبا الغربية والولايات المتحدة فى النقصان باطراد ، ولكنها لم تنقص فى آسيا ، واليك الارقام : فى انجلترا ويلز كانت نسبة العاملين فى الزراعة فى سنة ١٨٧١ هى ٢١ فى المائة من عدد السكان ، وفى سنة ١٩٥٠ صارت ٧ فى المائة . وكانت الأرقام فى ألمانيا : ٦١ فى المائة فى عام ١٧٨٥ و٣٨ فى المائة فى سنة ١٩١٩ و٢٥ فى المائة تقريبا فى سنة ١٩٥٠ . وفى الولايات المتحدة ، وهى البلاد الكلاسيكية للتجربة التكنولوجية ، كان ٧٥ فى المائة من عدد السكان يعملون فى الأرض فى عام ١٨٢٠ ، وصاروا اليوم ١٧ فى المائة فقط . ولم ينقص عدد الزراع فى روسيا بشكل ملحوظ الا بعد قيام الحكم السوفييتى . كان ٨٠ فى المائة من المجموع فى عام ١٩٢٨ ، وصار اليوم ٥٠ فى المائة .

ولكن فى الهند وباكستان ، تحت الحكم البريطانى ، كان ٦٥ فى المائة من عدد سكانهما زراعا فى عام ١٨٩١ ، وبلغ الرقم ٧٥ فى المائة فى سنة ١٩٣١ . ان الاحصاءات شىء خطير قطعا ، ولكن هذه الارقام ارقام رسمية بريطانية ، كتبها ا.ر.ديساى فى كتابه « الأساس الاجتماعى للقومية الهندية » وقد نشرتها جامعة بومباى فى سنة ١٩٤٨ . انه كتاب تصعب قراءته ، ولكنه عمل خبير ، وهذه الحالة ، وهى مماثلة ومطابقة لما كان عليه الحال فى آسيا المستعمرة قد ازدادت سوءا بسبب حقيقة مؤداها أنه فى خلال القرنين الماضيين ازداد عدد السكان زيادة كبيرة ، ففى سنة ١٨٠٠ كان عدد سكان الهند وباكستان ٠٠٠و٠٠٠و٧٠ تقريبا فصار حوالى ٠٠٠و٠٠٠و٢٨٠ فى سنة ١٩٠٠ ، وحوالى ٠٠٠و٠٠٠و٤٠٠ فى سنة ١٩٤٠ وليس محض صدفة ان تحبذ الحكومة تحديد النسل .

ومن الناحية النظرية ، فان هناك ثلاث وسائل ممكنة للافلات من هذه « الثنائية الاقتصادية » . أعنى انهيار الاقتصاد الوطنى

كنتيجة لدخول السلع المصنوعة الغربية : (١) الرأسمالية الراديكالية وصبغ البلاد بالصبغة الغربية . كما فعلت اليابان . (٢) الصبغة الاشتراكية بمعنى اشاعة الصبغة الاشتراكية مع الاستعانة بالآلات الميكانيكية ، وهذا هو السبيل الذى سلكته روسيا والصين المعاصرة والسبيل الذى يحاول نهرو مثلا أن يطبقه فى الهند ، ولكن ليس بالصورة البلشفية (٣) العودة الى أيام ماقبل الراسمالية ، بمعنى نبذ الرأسمالية والآلات وكل شىء نسميه التكنولوجيا والمدنية الغربية ، مادام يعوزنا تعبير أفضل .

لقد حاول غاندى ان يسلك الطريق الثالث ، انه بكراهيته للتكنولوجيا الحديثة « المجافية للطبيعة » وكراهيته للمصانع والآلات والتليفونات وقطارات السكة الحديد وكل شىء آخر ، الذى كان فى نظره يلتهم المجتمع البدائى والحضارة البدائية كالسرطان ، انه بسبب كراهيته لكل هذا ، كان يحبذ العودة الى الوسائل البدائية الأولى للانتاج (سواديشى) ولا سيما غزل القطن ونسجه فى البيت ، ولا نكران فى أن النتائج التى ظفر بها كانت خارقه للعادة ، فقد صار « الخادى » وهو الثوب القطنى الذى يصنعه الفلاحون ، شارة الحرية ، والأمر الذى كان له أثر أعظم ، ان غاندى بفضل الخادى والسواديش ، استحث الزراع وجعلهم يثورون ضد الاستعمار البريطانى . ويروى جواهر لال نهرو كيف انه والمهاتما قاما فى صيف سنة ١٩٢٨ ؛ بحرارته المحرقة برحلة من رحلاتهما المتعددة ، من قرية الى قرية ، فى الأقاليم المتحدة ، فى سبيل الدعوة للخادى ، وقد استقبلا فى جميع القرى ـ والواحدة لا تبعد عن الاخرى الا مسافة تقطعها السيارة فى ربع الساعة ـ من جمهور يضم عشرة الاف من الزراع والعمال فى الأرض ، ومعهم زوجاتهم واطفالهم ، وكان هناك خطاب يلقى فى ٢٠ دقيقة ، ثم يمضيا الى القرية التالية ، وبالاضافة الى الزراع الكثيرين الذين استجابوا للدعوة ، كان هناك كثيرون من المثقفين والبورجوازيين الذين صنعوا « خاديهم » بأنفسهم . وكان هذا

الاجراء ، من وجهة النظر الاقتصادية والثقافية ، اجراء تحرريا في ذاته ، لقد أبقى على احترام الفلاح لنفسه ، وقلل ــ الى حد ما ــ من العداوة بين البورجوازيين فى المدن وجمهرة الفلاحين ، هذا هو ما حققه غاندى ، وكان عنصرا من عناصر عظمته •

الا أن نظرياته الاقتصادية كان معناها الارتداد الى الماضى ، وتكاد الا تنتمى الى عالمنا الحاضر ، ومنذ بدات التجربة التاريخية، كانت الآلة تدمر ، فى كل مكان ، وسائل الانتاج القديم ، والأهم من هذا ، ان الوسائل الأكثر انتاجا تظهر فى مرحلة محددة فى تاريخ الدول جميعا •• انه قانون الطبيعة ، كما كان دائما ، واذا قارنا بين أوروبا وآسيا ، لوجدنا أن هناك كثيرين من الناس فى أوروبا الفتية ــ الفتية بمقارنتها بآسيا ــ يعارضون فى خلع الصبغة الميكانيكية الشاملة على الاقتصاد والحضارة . ولم تعد المسألة مسألة اناس يرفضون أن يأكلوا الخضر والخبز الذى أنتج بفضل السماد الصناعى ، ولم تعد المسألة مسألة زراع يرفضون التلقيح الصناعى لماشيتهم . حقيقة أن هناك أناسا من هذا القبيل ،ولكنهم ليسوا كثيرين . ان المسألة انما هى الحنين ، بوجه عام ، الى الطبيعة ، وهو الذى يجد متنفسا له فى الأجازات التى تقضى فى الرياضة والمشى ، وثمة ظاهرة عصرية نموذجية ، وهى شيءيختلف كل الاختلاف عما ذكرناه ، ولكنها متميزة بالطابع ذاته • تلك هى الثورة فى الفن والأدب التى دفعت جوجان مثلا الى الحياة البدائية •• الى ما هو طبيعى •• ومع هذا ، فان مثل هذه الأشياء لا أهمية لها من وجهة النظر الاقتصادية ، لقد بقيت الآلات ومازالت آلات جديدة تصنع باستمرار لأن الآلات معناها انتاج علا وخبز اكثر وبيوت اكثر ومتسع من وقت الفراغ . وعندما يحين الوقت المناسب فان الفلاح الأسيوى لن يعارض فى استخدام الجرار والسماد الصناعى .

ولهذا فان الاشتراكيين فى الهند البريطانية مثل نهرو نظروا الى « الخادى » والسواديشى ، كحركات مؤقتة ووسائل مؤقتة ،

رغم فعاليتها . أما الشيوعيون فكانوا يعارضونها ، يضاف الى هذا ان غاندى كان يرفض على الدوام ان يثير الزراع والعمال ضد الطمع الرهيب الذى تميز به الراسماليون وملاك الأراضى الوطنيون ، والذين قال عنهم هـ.ن.بريلزفورد فى كتابه « الهند فى ثورة » : ان مقرضى الأموال الهنود وكبار ملاك الاراضى « الزامندارى » هم أكثر الطفيليات التى يصادفها الانسان جشعا فى اى مجتمع معاصر . ان كبار ملاك الأراضى « الزامندارى » وهم غالبا انجليزيو المشرب ، وأمراء الولايات الهندية والولاياتالوطنية وهم رجعيون بوجه عام كانوا يحكمون ثلث البلاد ، وكانوا يؤلفون ربع عدد سكانها ، ولم يتعرضوا للمتاعب مباشرة بسبب حملات غاندى .

ويبدو ان « حياد » غاندى فى الصراع الطبقى كان يحكمه ويحدده مبدؤه العظيم الثانى ، وهو كراهية العنف ، وتتلخص وجهة نظره فى ان العنف لايولد الا العنف ، وهى فكرة استقىجزءا منها ، من الهنود الأول ، واستقى الجزء الآخر من مصادر غربية حديثة ، وفيما يتعلق بالجزء الثانى نستطيع ان نذكر ، فى المحل الاول ، كتاب القرن التاسع عشر الذين اقتبسوا من امرسون وثورو ، وفوق كل هؤلاء : تولستوى .

وكان الكاتب الروسى العظيم والمهاتما يكتب كل منهما للآخر خطابات كثيرة ، كان تولستوى ، مثل رفاقه الذين من طبقته رجعيا وضابطا جريئا لايكترث لشىء ، ولكنه فى الأعوام ما بين ١٨٨٠ و١٩١٠ تخلى عن الكثير من معتقداته السابقة ، وكانيهاجم فى اقواله وكتاباته ، العنف بوجه عام وحكم القياصرة الارهابى بوجه خاص ، وانتشرت كتبه بطريقة غير مشروعه فى روسيا .. واحتجاجا على مدنية الآلة ، عاش فلاحا يعمل فى الأرض وارتدى قميصا خشنا من قمصان الفلاحين المصنوعة من الكتان ، رغم انه كان ابيض اللون معطرا ، كان غاندى يطالب بالعفة التامة كجزء من

لطهارة الداخلية ، وكان يصف العلاقات الجنسية بين الرجل وزوجته بانها «غير طبيعية» ، وقد شاركه تولستوى هذه الآراء .

وكما أن الماركسية لم تفسر التاريخ فحسب بل انها غيرته ، فكذلك استطاع هذا الثورى الهندى العظيم ، بفلسفته القائمة على عدم العنف ، أن يغير تاريخ آسيا الجنوبية الشرقية ، ذلك لأن حملاته المتعددة الخاصة بالمقاومة السلبية ، والمثل الذى ضربه بنفسه فى اضراباته الأربعة عشرة عن الطعام .. كل هذا قد عبأ روح الحرية لا بل اضعف الى حد خطير الحكم البريطانى ، اكثر مما تفعله المقاومة الدامية ، ولم يسبق لأية حركة استقلالية فى الغرب او فى آسيا او افريقيا أن ظفرت بمثل هذه المكانة . ان الحركة المناهضة للاستعمار فى بلاد مثل أندونيسيا ومصر وشمال افريقيا الفرنسى قد عملت فى ضوء تجربة الهند وباكستان .

ويمكن ان يقال الكثير عن كفاح المقاومة من عام ١٩١٩–١٩٢٢، وفترة غاندى بوجه عام . والآن نواصل الحديث .. عندما أطلقت حكومة الهند غاندى والزعماء الآخرين من السجن فى ٤ فبراير سنة ١٩٢٤ ، هدأ فيضان المقاومة ، وكان رد الفعل من جانب لندن دبلوماسيا ، خففت قيود الرقابة التى فرضت بمقتضى قانون رولات حتى وان ظلت الانبـــاء الواردة من جميع الدول والصادرة اليها كلها .. فى يد وكالة رويتر الشبيهة بالرسمية . وكانت الهند حتى تلك اللحظة ، معزولة ، وان لم تكن معزولة عزلا تاما . ان رسائل رويتر عن حمام الدم فى أمريتسار ، فى أبريل ١٩١٩، قد نشرت لأول مرة فى اكتوبر فى الصحف البريطانية وغيرها من الصحف الأجنبية ، وكان البريطانيون يتمتعون بسمعة دولية ، باعتبارهم دبلوماسيى الغرب ، ولعل هذا عن جدارة ، ولـــكن البريطانيين ، كغيرهم من الشعوب الأخرى يعتقدون ان بلادهم هى البلاد المتحضرة الوحيدة على الارض . كتب أحد الفرنسيين الأذكياء مرة يقول : ان « العبيد » فى نظر البريطانى ، يبدأ ظهورهم

فى « كاليه » والواقع ان البريطانيين يخطئون فهم عقلية الشعوب الأخرى ورغباتها ، ولا سيما بالطبع شعوب آسيا وافريقيا ·

وفى سنة ١٩٢٦ ، كلفت الحكومة عددا من البريطانيين بالقيام بمهمة التحقيق فى الهند ولدراسة التطبيقات المتعلقة باصلاحات مونتاجو شيلمز فورد فى عام ١٩١٩ ، بوجه خاص ، والفوا يومئذ لجنة سيمون ، ولم يكن فيها وطنى واحد ، وكانت النتيجة ان اللجنة قوطعت من المستعمرة كلها ومن الأحزاب جميعها ، بما فيها حزب « سوراج » المعتدل ، وازداد الانفعال ، وحتى فى القرى الصغيرة رفعت الأعلام السوداء احتجاجا عندما وصل أعضاء اللجنة ، ولوحظ أن الفلاحين الهنود كانوا يعرفون من الانجليزية ثلاث كلمات على الأقل : « عد لوطنك ياسيمون » ، وعندما قدمت اللجنة ، فى سنة ١٩٣٠ ، تقريرها الشامل فى مجلدين (مزيدا من الحرية – لا دومنيون – ومن ذا كان يتوقع شيئا آخر ؟) كانت الأزمة الاقتصادية قد أوقعت البلاد فى قبضتها ، وغيرت كل شىء

وفى خضم موجات الاضراب الثورية لعام ١٩٢٨ – ١٩٢٩ ، والتى اثبتت أن الطبقة العاملة تقوم بدور حاسم فى الحركة الوطنية ، اجتمع ممثلو جميع الأحزاب الوطنية تقريبا فى لوكنو (اغسطس ١٩٢٨) وأقروا مشروعا لوضع دستور دومنيون ، ويسمى تقرير نهرو تيمنا باسم واضع المشروع الروحى موتيلال نهرو ، ولكن المشروع لقى معارضة شديدة من أولئك الذين ظنوا أنه ليس ثوريا بقدر كاف · وقد تزعم المعارضة ابن موتيلال وهو جواهر لال نهرو ·· ونهرو الصغير سليل أسرة ارستقراطية فى كشمير . وكان قد عاد من فترة دراسية فى اوروبا (٢٧ – ١٩٢٨) وكان قبل ذلك طالبا فى هارو وطالبا فى كمبريدج حيث درس القانون والكيمياء وعلم النبات ، وكانت تجاربه فى رحلاته فى عام ١٩٢٧ قد عملت كخميرة لاشتراكيته الثورية ، ان عملية القمع القاسية لاضراب عمال المناجم فى ويلز – وهو اضراب لا يعدم

مبرراته ـ (وكان نهرو في لندن فى ذلك الحين) والاهتمام القليل الذى أبداه الاشتراكيون الرسميون حيال الحركات الاستقلالية فى آسيا ، اذا ماقورن بالحيوية العاصفة التى أبدتها رابطة شيوعية مناهضة للاستعمار فى مؤتمرها المنعقد فى بروكسل ـ وكان نهرو يمثل حزب المؤتمر الهندى فيه ـ كل هذه الأمور وغيرها قد دفعت نهرو الى اليسار ، وكان للزيارة التى قام بها الى موسكو قبيل عودته ، تاثير مماثل .

بيد انه يجب الا نخطىء ، ان نهرو لم يصبح بلشفيا • ان كل ما فى الأمر انه راى من جديد ، انه ليس فى اوروبا سوى حفنة قليلة من الاشتراكيين اليساريين والشيوعيين ، ممن فهموا الثورة الآسيوية ، واعترف بالأهمية التاريخية الكبرى للتجربة الاشتراكية فى روسيا ، ولا سيما فيما يتعلق بتأثيرها على آسيا ، ولكنه لم يكن متحمسا للأساليب البالغة العنف التى استخدمها البلاشفة فى تكميم الصحافة ، كما لم يكن متحمسا لظاهرة مؤداها أن كل شىء يجب أن يتم سرا ، ووراء أبواب مغلقة . وفى الكتاب الذى كتبه فى السجن (السيرة) بقلمه ، والمطبوع فى لندن سنة ١٩٣٦ ، تحدث نهرو عن مدى مايحس به من عرفان للدراسة النظرية الماركسية ، وكيف انه فهم ، من كتاب مثل ماركس ولينين طابع الراسمالية والاستعمار لأول مرة ، وكان هدفه هو ايجاد نظرية متكاملة ، تجمع بين الديمقراطية الغربية والنظرة الروسية والصينية ، فيما يتعلق بالديمقراطية .

وفى خلال المرحلة الأخيرة لمؤتمر لوكنو ، مثل فى رابطة استقلال الهند (التى تأسست فى ٣٠ اغسطس سنة ١٩٢٨) الأهداف المتطرفة للأقلية ، الأكثر تطرفا .

ولم تتح للحزب الاشتراكى الجديد ـ وكان نشاطه اصلا فى المقاطعات المتحدة ، الفرصة لينتشر فى البلاد جميعا . وفى صيف سنة ١٩٢٩ ، اعتقلت الحكومة كثيرين من زعماء العمال الثوريين •• الا أن المحاكمة المشهورة للاشتراكيين فى ميروت

ممن وصفوا رسميا بطبيعة الحال بأنهم شيوعيون وارهابيون ، لم تمنع من قيام ٥٠٠ر٠٠٠ عامل بالاضراب فى مصـــانع القطن فى بومباى . ولم تضعف من المد الصاعد للثورة فى كل مكان .. وهنا حدثت الموجة الثالثة لحركة الاستقلال .

اعلنت حكومة لندن فى اكتوبر انها مستعدة للبحث فى وضـع دستور للهنـد على غرار دساتير الدمنيون ، وفى خـلال الشتاء فاز المتطرفون بالأغلبية فى حزب المؤتمر ؛ بالرغم من خسـرانهـم للزعماء المعتقلين . ولم يكن مطلب الحزب يومئذ الحصول عـلى دستور دومنيون ، بل « بورنا سوأراج » أى الاستقلال التام .. وقد تحدد هذا فى لاهور فى اول يناير سنة ١٩٣٠ ، وارتفـع البارومتر ، وعلى هذا الاساس ذاته اقام نهرو سياسة فى المستقبل

وكتب فى سنة ١٩٣٤ يقول : ان الفكرة التى اشتدت اليهـا الرغبة فى الحرية آخر الأمر هى هذه : اننا نأمل أن نوضح للشعب اننا نكافح فى سبيل اقامة نظام سياسى جديد ، كل الجدة « لا فى سبيل عمل طبعة هندية للحالة الراهنة يشد فيها البريطانيـون خيوط السيطرة ، كما هو الحال فيما لو كان لنا دســتور من دســـاتير الدومنيون ، ان الاستقلال السياسى معنـــاه الحرية السياسية فحسب ، ولا يحقق تغييرا اجتماعيا ولا حـــرية اقتصادية للجماهير ، ولكنه لايعنى فصم العـــلاقات المـالية والاقتصادية التى تربطنا بمدينة لندن ، وهذا مايجعل من الميسور تغيير النظام الاجتماعى ، ان الحرية السياسية شرط ســابق للتحرر الاجتماعى » .

٦

الهند و باكستان و بورما

كانت المرحلة الأولى من الاضطرابات فى الهند المستعمرة أكثر تعقيدا من الثانية ، وكذلك كانت المرحلة الثالثة ، مابين عام ١٩٣٠ و١٩٣٤ ، أكثر تعقيدا من الثانية ، ولن نستطيع فى مجالنا المحدود ، أن نصف كل ما حدث . ان المؤرخ الصادق يصف الماضى ويحكم عليه فى اطار طابعه التاريخى ، والطابع العملى فى معالجته يختلط بالطابع الفنى .. وهو لا يكتب رواية دقيقة فحسب ، بل رواية كاملة .

قال ميكافيلى منذ اكثر من اربعة قرون : ان التاريخ لا يصير ممتعا ومثيرا للاهتمام الا عندما يكون شاملا تاما ، وعلينا ، فى الحيز الصغير ، المهيأ لنا ، ان نقدم تحليلا فى عبارة تلغرافية ، اذا جاز التعبير بدلا من وصف شامل ومعالجة يمليها التصور .

فى خلال الفترة المحصورة بين عام ١٩٣٠ و١٩٣٤ صار للفلاحين والعمال والنساء شأن أكبر مما كان عليه فى المرحلة السابقة ، ولعل القارىء الاسيوى يعلم ، أكثر مما يعلم القارىء الاوربى والأمريكى الأحوال التى عاش فى ظلها أكثر الفلاحين ، وهى الأحوال ذاتها السائدة فى معظم الدول الاسيوية والافريقية .. انهم يسكنون بيوتا بدائية جدا ، وهى فى الأغلب أكواخ من الطين او القش أو الغاب ، ويظفرون بالقليل من الأرز أو الذرة اذا كان المحصول طيبا ، والا فقدر من الدهن ، يضاف اليه بعض الفاكهة والخضر من الحديقة ، وقليل من اللبن والزبد ، ولا لحوم ولا أسماك ، وقدر قليل جدا من السكر ، وبالاختصار فانهم

يحصلون على مقدار يقل كثيرا جدا عما يحصل عليه الفـــلاح الأوربى ، من جميع الأشياء .

وبالاضافة الى الكوارث الطبيعية او تلك التى فى أكثــرها طبيعية مثل انغمار الأرض بمياه الطر أو احتراقهــا ، والجراد والسيل ، فان هناك امورا اخرى مثل طريقة تقسيم الأرض الى قطع صغيرة جدا ، والمعاملة القاسية من اصـــحاب الأراضى و « الزامندارى » ، واكثرهم ـ ولا سيما فى شمال الهنــد ـ يملكون اراضى واسعة مساحتها ٤٠٫٠٠٠ فدان وأكثر ، ومازالوا يملكون بالرغم من ان الحكومة الحاضرة تحاول ان تغيـــر من الاوضاع الراهنة ، والمستفاد من الأرقام البريطانية فى عام ١٩٣٠ أن ربع صغار الفلاحين فقط يملكون أرضا مساحتها ١٢ فـدانا وأكثر ، ومن بينهــم « الزامندارى » وستون فى المائة يفلحــون حقولا صغيرة تقل عن خمسة افدنة ، ومن هؤلاء ٢٠ فى المائة لا يملكون الا فدانا واحد تقريبا او اقل ، وكانت التغيـــرات التى وقعت بين الحربين انتكاســا للمألوف ، فكبــار ملاك الأراضى وغيرهم من الملاك ممن لا يعتبرون فى طبقـــة الفلاحين ، ازداد عددهم من ٣٫٧٠٠٫٠٠٠ فى ســنة ١٩٢١ الى ٤٫١٠٠٫٠٠٠ فى سنة ١٩٣١ وازداد عددالعاملين فىالأرضكذلك من٢١٫٧٠٠٫٠٠٠ فى سنة ١٩٢١ الى ٣٥٫٥٠٠٫٠٠٠ فى سنة ١٩٣١ .

وعدد الذين يمكن أن يسموا بحق فلاحين وصغار ومـلاك ومستأجرين هبـــط من ٧٥٫٠٠٠٫٠٠٠ فى ســـنة ١٩٢١ الى ٦٥٫٠٠٠٫٠٠٠ فى سنة ١٩٣١ ، وكان دخل الأسرة المتوســطة ، التى تعمل فى الأرض يتراوح بين ١٥٠ و٢٠٠ جيلدر هولندى فى السنة .

ان تاريخ آسيا ، بما فى ذلك الهند وباكستان ، مليء بثورات الفلاحين فى فترة السيطرة الأوربية وقبل ذلك ايضــا ، وكانت القاعدة ان الفلاح يتقبل اهواء مالك ارضه أو الذى يقرضـــه

المال ، كما كان يتقبل تقلبات الطبيعة سواء بسواء ، ان ما جاء به الاستعمار الى آسيا هو الثورة الاقتصادية والاجتماعية لعصر الآلة ، وكانت بعض الأحداث كالثورة الروسية وانتشار الأفكار الاشتراكية الأوربية هي اول الأمور التى ايقظت فى بعض الفلاحين الأسيويين وعيا ورغبة فى الظفر بنصيب مناسب من طيبات الدنيا .

وفى الأعوام ما بين ١٩٢٠ و١٩٢٩ نجح الاشتراكيون والشيوعيون فى ضم فريق من الفلاحين فى الهند وباكستان الى جمعيات الزراع (كيزان سابهاس) ، والتى انتهجت ، بوجه عام ، سياسة حزب المؤتمر ، ولكن الاكتمال الحقيقى لحركة الفلاحين كما كان الحال فى الصين ، قد تم فى سنة ١٩٢٩ عندما بدأت الأزمة الاقتصادية ، التى انتشرت مزمجرة كالاعصار ، لا فى البلاد الراسمالية التى بلغت شأوا بعيدا من التطور فحسب بل فى المناطق الجائعة من آسيا كذلك .

وعندما اجتمع المؤتمر الأول للفلاحين الهنود جميعا (مؤتمر كيزان) فى لوكنو سنة ١٩٣٥ كان هذا دليلا على أن المعركة الاجتماعية للقرى قد بدأت ..

كانت فترة الأزمة نقطة تحول كذلك بالنسبه لحركة العمال ، ولم تكن هناك قبل شتاء ١٩١٨ ـ ١٩١٩ ، سوى اضرابات قليلة لعمال المصانع فى الهند البريطانية ، ولكن كان ثمة اضرابات سياسية ، والاستثناء الوحيد الذى يستحق التسجيل هو اضراب سنة ١٩٠٧ الذى أشاد بذكره لينين ، فى مصانع القطن فى بومباى ، بعد اعتقال تيلاك .

اما كيف ساهم العمال (فى ١٩٢٠ ـ ١٩٢١) فى اعمال الحركة الوطنية ، مثلا باضرابات احتجاج ضد قانون رولات ، فقد سبق لنا أن وصفناها ، وفى الفترة ذاتها اسس مؤتمر اتحاد نقابات العمال الهندية (١٩٢٠) وكان يتزعمه فى البداية ساسة

احرار (ن.م.جوتى ، لالا راجبات راى وجوزيف بابتيستا) .
وظهرت أول مجلة أسبوعية اشتراكية ، « ذى سوشياليستا » فى عام ١٩٢٣ فى بومباى على يد س. ا. دانج . وشيئا فشيئا تغلغلت الأفكار الشيوعية فى حركة العمال الشابة ، وعندما حصل الجناح الثورى فى سنة ١٩٢٧ على أكثرية (بفضل نشاط نهرو وعوامل أخرى) أسس الفريق الأقل ثورية الاتحاد العام لنقابات العمال الهندية بزعامة جوشى ، ولكن عندما هدد هذا بالانحلال ، عاد الفريقان الآخران الى الاتحاد العام لنقابات العمال الهندية (١٩٣٨) ، وكان له برنامج اشتراكى يسارى وفى سنة ١٩٤٢ كان عدد أعضاء الاتحاد العام ٣٥٠٫٠٠٠ عضو .

وبالرغم من ان احزاب العمال والفلاحين الشيوعية والاشتراكية كانت تزاول نشاطها فى مختلف المقاطعات ، فان الحزب الشيوعى الحقيقى فى الهند يرجع تاريخه الى عام ١٩٣٣ فقط ، وفى عام ١٩٣٤ حظر نشاطه وظل حزبا غير مشروع حتى سنة ١٩٤٣ ، ولم يكن لزعمائه : م. ناروى وب.س. جوشى وس.ا. دانج اى شأن كبير فى الحركة الوطنية .

ويمكن أن نتبين مدى ما أثاره الحزب من الاهتمام اذا نظرنا الى الانتخابات التى جرت فى عام ١٩٥١ ــ ١٩٥٢ ، فقد حصل على ستة ملايين صوت مقابل ١٢ مليون صوت للاشتراكيين و٤٨ مليون صوت لحزب المؤتمر .

والعامل الجديد الثالث فى الحركة الوطنية هو ــ كما ذكرنا ــ النساء ، وقد اعتقل عدد كبير منهن بوصفهن متطوعات فى حزب المؤتمر ، وكان دور النساء كدور الفلاحين الذين كانوا يعملون فى ارض مستاجرة ، وكانوا يثورون لا ضد البريطانيين فحسب بل ضد الراسماليين الوطنيين ، فكذلك كانت النساء تخوض معركة مزدوجة ضد الاستبداد ، اى ضد السيطرة الاستعمارية وضد تقاليد الرجال ، القائمة على مناهضة المرأة ،

وكان هناك علامتان من معالم الطريق الذى قطعته حركة المرأة : انشاء مؤتمر النساء الهنديات (١٩٢٦) وصدور القانون الذى يحرم زواج الأطفال فى سنة ١٩٢٨ . والذى رفع سن الزواج بالنسبة للفتيات الى أربعة عشر عاما . والاجراء الذى اتخذ لمناهضة زواج الأطفال انما هو مثل على النشاط النسوى ؛ لا على النشاط المعادى للبريطانيين ، وكان هناك تأييد قوى لزواج الأطفال ؛ فى كثير من الدوائر الهندية ، لسبب واحد هو منع الدعارة ، وقد سبق للبريطانيين ــ وهم امناء لتقاليدهم ــ أن عارضوا زواج الأطفال فى فترة مبكرة ، ولم يكن القانون الصادر فى عام ١٨٦٠ ؛ والذى يمنع الزواج الا بعد سن العاشرة ، تعبيرا عن موقف البريطانيين ، حيال هذا الموضوع ، ولكنه كان تعبيرا عن التقاليد الثقافية للهند ، لماذا ؟

ان البريطانيين ــ وقد ازعجتهم ثورة سنة ١٨٥٧ ــ حاولوا أن يتفادوا اقحام أنفسهم فى شئون وطنية بحتة مادامت أهدافهم الاقتصادية لا تتعرض للخطر ؛ فلم يكن هناك مثلا ضم ممتلكات وطنية جديدة ، وهو تراث ، ما زالت الهند وباكستان تجنى ثماره المريرة المذاق . واتخذت موقفا محايدا فيما يتعلق بالثقافة أو الحضارة الوطنية .

وفى الواقع كان معنى هذا سد الطريق امام الكثير من رغبات البلاد فى الصبغة العصرية ، ومن ثم كان : بمعنى ما ، سياسة رجعية تتعارض تعارضا شديدا مع أهداف السياسة الحرة التقدمية للنصف الأول من القرن التاسع عشر .

وباستثناء الاجراء الذى اتخذ ضد الاتجار بالنساء ، وكان فى مقاطعة مدراس وحدها ٢٠٠ ألف من البغايا ــ حاولت الحركة النسائية أن تمد نطاق التعليم وأن تدخل العناية الصحية بالطفل وأن تجعل المرأة الهندية ، فى نواح أخرى : امرأة عصرية ، وثمة نساء عديدات من اللاتى قمن بثورة الجنس الآخر ، صارت لهن

شهرة دولية مثل ساروجيني نيدو وكمالا ديفي شاتوبادهايا وفيجايا لاكشمي باندیت ، شقيقة جواهر لال نهرو .

وكان معنى الانضمام الى الحركة الوطنية للعمال والفلاحين حقنها بدم جديد وتوسيعا لمجالها وتعزيزا لقواتهـا ، وفي الوقت نفسه شطر هذا العامل الجديد الحزب وأقلق بطبيعـة الحال الوطنيين البورجوازيين وان سياسة حزب المؤتمر فى هذه الفترة لا تفهم الا اذا ادرك المرء الى اى مدى كان البورجوازيون وغاندى يخشون الحركة الثورية الاشتراكية في بلادهم .

ويمكن ان نلمح مثلا انعدام الثقة السياسيـة ، فى الزحف الشهير الى الملاحات (١٩٣٠) وهو بداية ما اسموه بالمقاطعـة الثانية ..

ففى صباح ١٢ مارس سار غاندى وثمانون شـخصا الى الشاطىء ، عند كامباى الواقعة على بحر العرب وبدأوا بطريقـة غير مشروعة ، فى استخراج الملح وصنعه ، وهى غير مشروعه لأن الحكومة البريطانية كانت تملك احتكار الملح ، وكانت ضريبةالملح اجراء مستكرها بصفة خاصة وبالصدفة ، لم يكن هنـاك شىء جديد فى شعور كهذا .

ففى القرن الرابع عشر حمل الفلاحون الفرنسيون السلاح ضد ضريبة الملح . وقد دفعت رحلة غاندى الى شاطىء البحر - وقد صحبه الصحفيون والمصورون - البلاد الى غضبة شديدة بسرعـة مذهلة .

ويجب التسليم بشكل قاطع بان فراسته التى تجاوز المألوف قد حققت من جديد ، ما لم يستطع الاخرون أن يفعلوه عـلى الاطلاق ، ومع هذا ، فهل كان الامتناع عن دفع الضريبة كفيلا بان يكون فعالا مثل هذا الاجراء المباشر ؟

- لا شك أنه كذلك ، ولكن بالنسبة للفلاحين فان مثل هـذا

الامتناع يشجعهم على الامتناع عن دفع الايجار لملاك الأراضى ، وكان غاندى حريصا بصفة دائمة على عدم المساس بحقوقهم ، انه لم يكن واقعيا لا يتأثر باعتبارات الدنيا ، بل كان رجلا هادئا وسياسيا ماهرا جدا ، وهذا هو السبب فى تذبذب سياسته ، التى كانت تثير الاهتمام بقدر ما فيها من غموض ، لقد وضع نهاية لاستسلام الفلاحين للاستعمار وخلع على الجماهير الهندية روحا جديدة من احترام الذات ، ولكنه حالما راى أن الحركة توشك أن تهدد ، لا الاستعمار البريطانى فى ذاته ، بل الاقطاع الهندى والبورجوازية الوطنية ، حاول أن يصدها الى الوراء ، ولربما أدركت الادارة البريطانية هذا — وهى لا تعيه كل الوعى — فلم تدر اطلاقا كيف تعامل المهاتما وتعالج أمره بطريقة سليمة ، فهل كان هو الوطنى الثائر رقم « ١ » الذى يجب أن يعتقل أم انه كان واحدا من الضمانات ، المرغوب فيها كل الرغبة ، ضد الثورة الاجتماعية فى نهاية الأمر ؟

ترك غاندى ، دون أن يمسه اذى ، بسبب زحفه الرمزى غير المشروع ، الى الملاحات الا انه حدثت اعتقالات فى جميع انحاء البلاد ، وشددت الرقابة على الصحف .

ولكن عندما بدا أن الحركة فى ابريل — مايو سنة ١٩٣٠ تتخذ طابعا ثوريا لمهاجمة مصانع الملح التابعة للدولة واضرابات الفلاحين وامتناعهم عن دفع الايجار ، واضراب العمال فى المصانع ومقتل الموظفين البريطانيين ، عندما وقع كل هذا ، قبض على غاندى فى ٥ مايو ومعه ٦٠،٠٠٠ من أتباعه ، كان من بينهم نهرو وأولاده ، ومعظم اقطاب حزب المؤتمر الآخرين ، وضعفت حركة المقاومة بسبب افتقارها الى زعامة واعية بما تفعله . ومع هذا ، فان تقرير لجنة سيمون (الذى نشر فى منتصف شهر يونيو) وقد رفض فيه وضع الدومنيون بطبيعة الحال للمرة الثانية ، اعتبر سبة بالغة ، سواء فى داخل السجون أو خارجها ، وبعد ذلك بستة شهور تلقى غاندى كتابا من الحاكم العام يدعوه فيه

الى استئناف المفاوضات ، وفى ٢٦ يناير غادر سجنه قاصداً دلهى ، وفى ٤ مارس سنة ١٩٣١ نشرت الحكومة اتفاق دلهى المشهور (المعروف باسم اتفاق اروين ـ غاندى) ، وقد بدا ـ رغم انه ضد رغبة زعماء المؤتمر الذين كانوا ما زالوا فى السجن ـ وكأنه تسليم تام ، وكان العزاء الوحيد هو ان الحكومة اطلقت سراح جميع المسجونين السياسيين ما عدا الارهابيين ، وانها لن تعارض اية مقاطعة أخرى للسلع المصنوعة فى الخارج كالسلع القطنية ، ومعنى هذا ان المقاطعة لا تقتصر على السلع البريطانية وحدها ، وعلى هذا فان انتاج « الخادى » سيكون حرا وان مصالح صناع القطن الهندى سوف تراعى .

وفى مقابل هذا صار حتما على حزب المؤتمر ان يمتنع عن كل مقاومة جديدة ، ولا سيما فيما يتعلق بالمفاوضات البريطانية الهندية التى انتقلت بعد ذلك الى لندن باسم مؤتمر المائدة المستديرة ، وعقد اول مؤتمر مائدة مستديرة فى لندن (من ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣٠ الى ١٩ يناير سنة ١٩٣١) ، وبدا أن هناك عددا من الزعماء الهنود و « الزامندارى » ، أكثر ملكية من الملك ، قد خذلوا بلادهم فى الحفلات الرسمية الكبرى ، وقد اثار ولاؤهم الناعم الم الكثيرين من الانجليز التقدميين ، وبطبيعة الحال لم يتيسر تحقيق اى هدف ، ومضى كل شىء حسب مشيئة البريطانيين ، كما قال نهرو فى مذكراته ، وكنتيجة للاتفاق الذى تم فى دلهى ، دعت بريطانيا غاندى أن يشهد المؤتمر الثانى للمائدة المستديرة فى لندن (سبتمبر ـ ديسمبر ١٩٣١) وقبل الدعوة ، ولكنه لما كان معزولا تماما فى لندن ، فلم يحقق شيئا ، والآن ماذا كان رد الفعل من ناحية لندن ... لقد شدت خيوطا جديدة ..

ففى ٤ يناير سنة ١٩٣٢ قبض اللورد ويلنجدون ، الحاكم العام الجديد ، (١٩٣١ ـ ١٩٣٦) على جميع الزعماء الوطنيين ذوى الشأن كما قبض على غاندى ، وهو عائد الى وطنه ، واعلن

ان حزب المؤتمر حزب غير مشروع ، واصدر سلسلة من المراسيم التعسفية ، بالأسلوب الاستعماري العتيق ، وقد وصف الكاتب البريطاني ج. ت. سندرلاند في كتاب « الهند في الأغلال » (١٩٣٢) هذا الأسلوب بحق ، بانه « مرعب » .

فماذا كان رد الفعل من ناحية غاندي ؟ ايعلن المقاطعة للمرة الثالثة ؟ لا .. بل اضراب عن الطعام من اضراباته المتسمة بالبطولة ، كاحتجاج على الأحوال الرهيبة التي يعيش في ظلها المنبوذون ، وهم يؤلفون ٥٠ مليون هندى ممن لم يكونوا اعضاء في الطوائف الهندية المعترف بها ، لقد كان مجهودا نبيلا ، ولكنه لم يكن شديد الخطر على الحكم البريطاني .. أم انها كانت حالة اخرى من فراسته وحدسه ؟ هل رغب بهذه الطريقة في ان يستدرج الى ثورته « المنبوذين » وهي آخر طائفة تتأثر بالحركة الوطنية .

وعلى اية حال فقد ازدادت المقاومة خارج السجون ، وبعد ان اعلن حزب المؤتمر حركة المقاطعة الثالثة في بونا (منتصف يوليو ١٩٣٣) حدثت عدة اعتقالات (١٥٠ الف) .. وهو اكبر عدد يعتقل حتى تلك اللحظة ، وقدر جواهر لال نهرو عدد المعتقلين في الفترة بين ١٩٣٤ الى ١٩٣٧ بحوالي ٣٠٠ الف .

ان النجاح المنحوس في الظاهر لسياسة غاندي المحوطة بالغموض ، قد دفع الثوريين الى المقدمة ، وقد اعترف غاندي نفسه بأن هذه الفترة لم تكن من صنعه بصفة شاملة .

وفي اوائل ديسمبر سنة ١٩٣٢ ، جاءوا بنهرو ، الثوري اليساري ، الى لاهور ، على حصان أبيض ، ونصب زعيما لحزب المؤتمر بناء على نصيحة المهاتما ، وظهر الاتجاه صوب اليسار

في لاهور ، في مشروع قرار بورنا سواراج (١) ، وفي الاغلبية القليلة التي ظفر بها مشروع قرار نهرو بشأن الحقوق الأساسية وهي النقط الرئيسية التي يكمن فيها تأميم أكثر الصناعات أهمية كالصلب والفحم والنقل والاعتراف بحقوق العمال والاصلاح الزراعي .

كل هذا لا يعني حتما ان سلطة غاندي قد تصدعت .. ولكنه يعني فعلا انها تضاءلت كثيرا .. ان الوطنيين الثوريين مثل نهرو وشاتورا بوس كذلك ، قد تسامحوا في اتفاق دلهي بالرغم من انهم لم يوافقوا عليه في الواقع . وعندما هددت الخلافات المتزايدة في داخل الحزب بعرقلة الحركة كلها ، صار غاندي من جديد عضوا في حزب المؤتمر (اكتوبر ١٩٣٤) ، وظل نشيطا شيئا ما ولكنه بقي في المؤخرة .

وفي الوقت نفسه كانت لندن تراجع أفكارها ، فلم تكن سياسة غاندي وحدها هي المحوطة بالغموض ، ومن خلاصة اعمال لجنة سيمون ــ ولم تكن لجنة مثمرة ــ ومن مؤتمري المائدة المستديرة ، وضعت مشروعا لم يكن بعيدا عن الواقعية .

وفي ٢ أغسطس سنة ١٩٣٥ أقر البرلمان البريطاني المشروع الجديد لقانون حكومة الهند .

وكان معنى القانون الجديد أن نظام الحكم البريطاني في جنوب شرقي آسيا قد دخل عليه تيسير مادي ، واثبت ــ بالرغم من ذبذبة الحركة الوطنية ــ ان البريطانيين ادركوا مغزاها واهميتها ، وان ادراكهم لحقيقتها اعظم مما كان لدى الهولنديين أو الفرنسيين . وفصلت بورما وعدن عن الهند واصبحتا من مستعمرات التاج .

وزيادة في الاطمئنان ، اذا حدث انفجار في الهند وباكستان،

---

(١) كلمة هندية معناها الاستقلال التام .

قسمت الهند البريطانية ذاتها الى احدى عشرة مقاطعة ، لكل منها حاكم يمثل التاج ومجلس تنفيذى وجمعية منتخبة لهـــا سلطة تشريعية . وكان مفروضا أن تتمتع حكوما تالمقاطعـات الجديدة بالحكم الذاتى فى جميع الأمور الداخلية البحتة ، الا فى حالة الطوارىء ، وهذه عبارة غامضة شيئا ما ـ فانه يكون للحاكم حق النقض .

ونص القانون كذلك على تحويل الاحدى عشرة مقاطعـة الى اتحاد فيدرالى يضم الهند جميعا ، ويضم كذلك حـوالى ٥٥٠ مملكة وطنية ، صغيرة وكبيرة ، وفى بداية الأمر يركز البـرلمان الهندى اهتمامه على المقاطعات الاحدى عشرة ، وتأليفـــه كما يلى :

مجلس أعلى من ٣٦ عضوا منتخبا و٢٤ عضوا معينا وجمعية تشريعية من ٤٠ معينين و١٠٥ منتخبين بواســطة جمعيـات المقاطعات ، ويعهد الى الحاكم العام بشئون الدفاع والعــلاقات الخارجية ، وكان مقررا أن يوضع القانون موضع التنفيذ فى أول ابريل سنة ١٩٣٧ .

وكان قانون حكومة الهند خطوة حاسمة عبر الطريق الشاق الى الحكم الذاتى ، ولم يكن فى الاستطاعة التراجع بعـد اليوم ، ولكن الى اى مدى ابتعد الحكم الجديد عما كان يطالب به البعض منذ عشر سنوات : البورنا سواراج و « التحر رمن الخطيئة » كما ترجم غاندى مرة هذه العبارة .

لقد استعرضنا المراحل الثلاث لحركة المقاومة : من ١٩٠٥ ـ ١٩١٠ ومن ١٩١٩-١٩٢٢ ومن ١٩٣٠ ـ ١٩٢٤ ، ان أمـواج الوطنية قد هزت أسس الامبراطورية البريطانية ثلاث مرات، ولم يسبق أن كانت الهند اقرب الى الحرية التى تتمناها من زمن بعيد منها الآن ، ولكنه لم يتح لها أن تظفر بها فى خلال فترة ما بين الحربين .

فعندما نشبت الحرب العالمية الثانية فى اوربا فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، أعلن اللورد ليثلنجو نائب الملك أن الهند فى حرب دون ان يسأل هنديا واحدا رأيه .. ومع هذا ، فان الفترة المحصورة بين عامى ١٩٣٧ و١٩٤١ كانت من فترات النمو المطرد بالنسبة للوطنيين ، ولربما كانت اكثر انعاشا للهندوس اكثر مما كانت للمسلمين .

واستغرقت عملية اعادة تكوين حزب المؤتمر وقتا اقل مما كان متوقعا ، وبالرغم من أنه بسبب الخلاف الداخلى وسياسة ويلنجدون ، القائمة على الاعتقالات هبط اعضاء الحزب الى ٦٠٠ الف عضو فقط ، فان نتائج الانتخابات الاقليمية فى يناير وفبراير سنة ١٩٣٧ قد اثبتت أن الحزب ولد قويا من جديد ، ففى الجمعيات التشريعية التابعة للمقاطعات الاحدى عشرة كان له ٧١٥ مقعدا من ١٥٨٥ مقعدا ، وفى ست مقاطعات هى مدراس وبومباى والاقاليم المتحدة وبيهار والأقاليم الوسطى واوريسا ، كانت له الاغلبية ، وكان أقوى الأحزاب فى البنغال وآسام ، وفى مقاطعة الحدود الشمالية الغربية تولت الحكم وزارة من حزب المؤتمر ، وفى البنجاب والسند وحدهما ، وهما الآن باكستان الغربية وتسكنهما اغلبية مسلمة ، كان نجاح حزب المؤتمر محدودا ، ففى البنجاب لم يحصل الا على ١٨ مقعدا ، وفى السند حصل على ٧ مقاعد من ٦٠ مقعدا .

وتثير النتائج قدرا اكبر من الاهتمام عندما نذكر ان ١٢ فى المائة فقط من عدد السكان هم الذين كان لهم حق الانتخاب ، اى البورجوازيين وغيرهم من القلائل الذين يستطيعون القراءة والكتابة ، ومع هذا فقد كان نصرا ، اذ استطاعت المستعمرة ، بفضل الوسائل الديمقراطية ، ان تقول رايها فى الحكم البريطانى .

ولكن ظهرت فى تلك اللحظة مشكلة من المشكلات التى تواجه

أى حركة من حركات التحرر • لقد استنكر الحزب ، من ناحية المبدأ ؛ الدستور الجديد ودمغه بأنه من اختـراع البريطانيين . فهل يتحتم ، بناء على هذا ، أن يقبل اعضاء حزب المؤتمر المناصب فى الحكومة الاقليمية ؟ واذا كان الامر كذلك فمـاذا تكـون خططهم ؟ لقد حدث ما كان متوقعا .

فعندما تم الاتفاق – فى وجه المعارضة المتطرفة من نهـرو وانصاره (حزب المؤتمر ، دلهى ، مارس ١٩٣٧) – على أن يقبل الاعضاء المناصب، وشكل حزب المؤتمر الحكومة فى سبع مقاطعات صارت الخلافات بين اليسار واليمين فى حزب المؤتمر ، شديدة حادة ، ولا سيما عندما اتخذت الحكومات الاقليميـة الجديدة إجراءات ضد حركة العمال على أثر وقوع الاضرابات .

يضاف الى هذا ، أن كثيرين من اعضاء جناح الميمنـة غير الاشتراكيين والمحافظين كانوا يشعرون بالمرارة لانهم ، باستثناء اطلاق سراح المسجونين وقانون الاصلاح الزراعى ، الذى ظل على الورق ، كانوا عاجزين من ادخال تعديل كبير .

ولم يستطع اليسار اطلاقا ان يحصل على اغلبية دائمـة ؛ ففى حزب المؤتمر فى هاريبورى (١٩٤٨) انتخب الاشـتراكى الثورى شاتورا بوس رئيسا ، ولكن وهم التحول الى اليسـار قد قضى عليه فى ١٩٣٩ ، فى تريبورى ، عندما استطاع راجندرا براساد ، المرشح الذى يؤيده غاندى ، وعضو الحزب ، أن يهزم بوس .

وفى ذلك الوقت بدا هذا كله أمرا عظيم الاهمية ، أما اليوم فلا تكاد ان تكون له اى اهمية ، لقد غيرت الحرب الكثيـر واكتسحت امامها الكثير من الاشياء القديمة ، ولكنـها تركت سؤالا بغير حل هو : متى وكيف يتمكن حزب المؤتمر ، بقوته الخاصة ، من دخول معركة الحرية ؟

ولقد تكلمنا حتى الآن عن الرابطة الاسلامية (الرابطة الاسلامية للهند كلها والمؤسسة سنة ١٩١٩) اقل مما تحدثنا عن حزب المؤتمر الهندى .

ذلك لأنه بالرغم من أن القسم الاسلامى من الهند البريطانية صار الآن جمهورية حرة فى داخل نطاق الكومنولث ، فان الرابطة الاسلامية كانت أقل فى الأهمية كثيرا عن حزب المؤتمر ، ان المسلمين لا يؤلفون سوى ربع عدد السكان ، ولم تكن للرابطة اطلاقا الأهمية التى كانت لحزب غاندى ونهرو ، وبالاضافة الى افتقار المسلمين الى حزب قوى ، من صنعهم . عمل كثيرون منهم فى حزب المؤتمر .

وفى الفترة المحصورة بين عامى ١٩٣٥ و١٩٤٠ وحدها ، استطاع « جناح » العظيم أن يطعم الحركة الاسلامية بدم جديد ، وخلق من الرابطة المستكينة التى تضم البورجوازيين المسلمين حركة طليعية تسعى الى الاستقلال وتنظيم جميع المسلمين الواعين ، ووضع « جناح » فى مؤتمر الرابطة الذى عقد فى لاهور الفكرة التى ترمى الى جعل البركستان جزأ مستقلا استقلالا ذاتيا عن الاتحاد الهندى .

وخشى المسلمون ، لأنهم كانوا دون الهندوس عددا وقوة اقتصادية أن يصيروا أقلية مقهورة متى انسحب البريطانيون ، ويبدو انهم كانوا على حق فى هذا .

وادرك الزعماء المسلمون كذلك الأهمية الطفيفة لأقليتهم فى المجموعة الاسلامية الدولية ، اذا هى ظلت مبعثرة بين جماهير الهندوس . وبدت روابطهم الوجدانية مع الشعوب الاسلامية من المغرب الى اندونيسيا ، حقيقة أكثر واقعية مرغوبا فيها بقدر أكبر ، وأشد أثرا من علاقاتهم مع الهندوس فى وطنهم الخاص ، كانت الرابطة الدينية أقوى من الرابطة القومية .

وعلى أى حال فان الخلاف بين الهندوس والمسلمين ، وهو

خلاف يدعو الى الاسف ، بقدر ما هو مفهوم من الناحية التاريخية ، لم يحل دون الزحف على الحرية ، وكان هذا وهما آخر من اوهام البريطانيين، ففى خلال فترة السيطرةالاستعمارية لم يستطع الحزبان الوطنيان الكبيران أن يظلا متخاصمين حقا الى الأبد .

وفى شتاء عام ١٩٣٩ ، وما انطو ىعليه من اخطار ، شعر الهندوس والمسلمون ، المتطرفون والمعتدلون ، فى قلوبهم بما كتبه جواهر لال نهرو عشية سجنه للمرة التاسعة :

ان الأصدقاء والمعارف ظلوا عدة شهور يجيئون الى ويهمسون : هل تدرى أن القوائم قد أعدت فعلا وهى تضم اسماء اعضاء حزب المؤتمر الذين سيعتقلون متى سنحت الفرصة ان هناك القائمة (ألف) والقائمة (ب) وم ن يدرى القوائم الأخرى؟ ان سلطات الأقاليم تسأل عن ابرز مروجى الدعاية لحزب المؤتمر فى اقاليمهم ، وما هو وضعهم ؟ وما مدى دخلهم ؟ وهل هم فى سجلات البوليس ؟ وهل يمكن اقناعهم بدخول الخدمة البريطانية ؟ وما هى موارد حزب المؤتمر المالية ؟ ومن أين تجىء وكيف تنفق ؟

« ان خطاباتنا تخضع للرقابة وبرقياتنا تسجل على اشرطة ، وحساباتنا فى البنوك يفحصها رجال الحكومة سرا ، ان هذا كله صحيح ، ولكن لماذا نقلق ؟ ان علينا ان نحتفظ بسيطرتنا على أعصابنا اذا قضت الحكومة فى قمع جهودنا صوب الحرية وحاولت القضاء عليها ، ان علينا ان نمضى فى مهمتنا بهدوء ولن نختفى من وجوههم اذا ضغطت الحكومة على (الزر) ووجهت جهاز الدولة كله ضدنا ، لماذا نلوم الحكومة ؟ ان حكومة استعمارية اجنبية ما كانت لتستطيع أن تتصرف بغير هذه الطريقة ، انها يجب ان تلجأ الى الاكراه والارهاب والرشوة والبوليس السرى ، فاذا كنا نقاوم ونكافح حكومة كهذه فلماذا نشكو من وسائلها ، اذا ذهب المرء الى الفراش ومعه نمر ، فإنه لن يدهش اذا استخدم النمر مخالبه وحاول أن يلتهمه » .

« ومع هذا ، فانه حتى لو كنا نواجه في هدوء ماهو كائن وما سوف يكون ، فاننا نستشعر الطمأنينة ، لأننا نعيش فى ظل احداث ضخمة ونحن بانفسنا نلعب دورا فيها .. وحتى أولئك الذين ينتمون الى جيل اكبر سنا واعتادوا ، بفضل المزيد من التجربة ، على التغيرات المفاجئة التى تجيء بها الحياة لا يكادون أن يتفادوا اليوم التفكير فى اننا على عتبة احداث غير عادية ، لقد ظللنا فترة من الزمن نعتقد بأن افراد الشعب البريطانى ، بعد تجارب العام الماضى ، وبسبب الخطر الذى يواجهونه ، قد يختارون طرقا جديدة ، ولكن الأمر لم يكن كذلك ، انهم ما زالوا ينحنون امام الالهة القدامى ولن يسمحوا بالتخلى عن جزء من امبراطوريتهم ؛ ان الداعين الى المهادنة فشلوا فى المانيا ، ولكنهم سيحاولون من جديد ، فى كل فرصة ، وسيظل هناك فى الأزمنة جميعا رجل على شاكلة هاليفاكس أو سيمون او هور ، ليقرر السياسة البريطانية ، وحزب العمال يقف ويتفرج » *

« أنت لا تدرى ما الذى سيجيء به المستقبل لنا ، لنا ولبلادنا وللعالم ، ان ما يقع لنا ليس مهما ، ان حياتنا ستنتهى ان آجلا أو عاجلا ، ولكن ما يحدث للهند امر بالغ الاهمية ، فاذا عاشت الهند حرة فاننا سنعيش أحرارا أما اذا لم تعش الهند فكيف يتسنى لأى فرد منا أن يحيا ؟

« ولكن لابد ان تحيا الهند ، وأن تحيا فى حرية ، لأن بلادنا لم تبق عبر القرون كى تقهر بالقوة الوحشية ، لن يقوم سلام فى الهند ولن يقوم سلام بين الهند وبريطانيا الا بعد ان يتحطم كبرياء الاستعمار وتصير الهند حرة مستقلة .. منذ فترة قليلة كانت هناك مناقشة فى البرلمان البريطانى استشهد فيها المستر امرى بما قاله كروموبل يوما ما ، واستشهد بهذا القول ضد الحكومة البريطانية ، وانى اقتبس ما قاله لجمهور اكبر ، للحكومة البريطانية ، للممولين البريطانيين ، للطبقات الحاكمة البريطانية ،

لنواب الملك ، للحكام وجميع من يلتفون حولهم ، اننى اقـــول لهم ما قاله كرومويل : لقد ظللتم هنا وقتا طويلا ، ارحـــلوا ، سيكون لنا معكم شأن آخر . اذهبوا باسم الله » .

وقد تحقق مطلب نهرو بعد ذلك بثمانية أعوام .

ان القارىء الذى يلم بالأحداث الرئيسية فى تاريخ آسـيا سيذكر كيف ان بريطانيا ، فى توسعها ، فى عهد فكتوريا ، قد ضمت ـ بعد انتظار طال نصــف قرن ـ الى الامبــراطورية البريطانية ما نسميه اليوم جمهورية بورما .

ان الحرب البورمية الثالثة (١٨٨٥) التي على أثرهـا اختفت بورما من الخريطة كدولة مستقلة ، كانت حركة بريطانية لحماية ممتلكاتها فى البنغال وآسام ، ولكنها كانت كذلك خطوة فى اللعبة ضد الاستعمار الفرنسى فى الهند الصينية .

وكان النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ولا ســيما الأعوام المحصورة بين عامى ١٨٨٥ و ١٩٠٠ هى مرحلة التقسيم ((النهائى)) لآسيا وافريقيا بين دول اوربا وأمريكا الشمالية .

وفى سنة ١٨٨٦ ، صــارت بورما ، وهى بلاد مساحتــها ٧٠٠ر٢٦١ ميل مربع ، وعدد سكانها حوالى ٧ ملايين نسمة ، صارت مقاطعة من الهند البريطانية ، وهى تقع اليوم عند حدود الصين وتايلاند والهند الصينية .

ولا ترجع أسبابنا الى عوامل جغرافية فحسب (حاجــز الغابات الجبلية بين بورما وآسام) ولكن الى عوامل تاريخيـــة بسبب اختلاف ماضى بورما اختلافا شديدا ـ النفــوذ الصينى والبوذية ـ وبسبب تاريخها فى المرحلة الأخيرة ، وانفصـالها عن الهند البريطانية ووضعها كمستعمرة من مســتعمرات التــاج البريطانى (١٩٣٧) ، والاحتلال اليابانى (١٩٤٢ـ١٩٤٥) واعادتها كجمهورية حرة (اكتوبر ١٩٤٧).

وبطبيعة الحال كانت الحركة الوطنية موجهة ضدالبريطانيين ولكنها كانت كذلك موجهة ـ بصورة اشد ـ ضد المهاجرين من الهند . ولا شك ان هذا كان يدعو الى الأسف ، وكان مخيبا للامال فى وقت كان الأسيويون يحتاجون الى الوقوف معا .

ولكن الأمر يصير مفهوما تمام الفهم بالنسبة لأى فرد ، يعلم تاريخ بورما الحديث ، فكما كان الصينيون مثلا فى الملايو ، اى الذين يؤلفون : الرأسماليين وأصحاب الأراضى والفعلة والعمال الموسميين ، فكذلك كان الهنود فى بورما ، وفى سنة ١٩٣٠ ، كان هناك منهم ١٫٢٥٠٫٠٠٠ تقريبا ، وكان عددهم كبيرا ، بوجه خاص ، فى رانجون ، حيث كانوا يؤلفون ٦٠ فى المائة من عدد السكان ، وكان الهنود عمال آلات وسائقين للترام وعمالا فى مطاحن الأرز ، وعمال مناجم فى مناجم القصدير وملاحين وعمالا فى الأرصفة ولكن الهنود كانوا كذلك مديرين لنصف اتحادات تجار الأرز ، وكان كبار ملاك الأراضى الهنود يسكنون فى بيوت فاخرة فى رانجون ، وفو قهذا ، فان ٣٠ فى المائة من الاستثمار الأجنبى كا نهنديا ، وكان ثلثاه مستثمرا فى الزراعة ، وكان مقرضو الأموال ، وهم طبقة مشهورة مكروهة من مدراس ، يملكون ربع مزارع الأرز جميعها فى وديان بورما السفلى فى عام ١٩٣٧ ، وكان صغار زراع الأرز هم وحدهم الوطنيون .

وأثار هذا روح المرارة ، ولا سيما أنه فى ظل الحكم البريطانى ، لم يكن ٨٠ فى المائة من الزراع بأحسن حالا من ذى قبل ، بل الأمر على العكس ، فان النظام الاقتصادى الأسيوى النموذجي ظل قائما كما هو ، وازداد عدد السكان زيادة سريعة (من ٥ ملايين فى سنة ١٨٥٥ الى ١٠ ملايين فى سنة ١٩٠٠ الى ١٧ مليونا فى سنة ١٩٤٠) .

وازدادت كذلك المساحات المزروعة أرزا ولكن طرق الزراعة ظلت ، بوجه عام ، بدائية كما كانت من قبل . وازداد المحصول ولكن ليس بالنسبة فى زيادة الأرض المنزرعة .

وفى عام ١٩٣٠ كانت أسر الفلاحين تحصل على تسعة أعشار سلعها القطنية من مانشستر وبومباى واليابان ، وقد أتاح هذا ـ من الناحية النظرية ـ متسعا من الوقت للعمل فى الأرض ، ولكن بسبب انخفاض انتاج الفلاح الاسيوى ووسائله البدائية فى الزراعة واعتماده على عوامل الجو ظلت المسألة فى وضعها النظرى .

وكانت النتائج بالنسبة للزراعة رهيبة ، واذا أراد اى فرد ان يظفر بصورة جلية للموقف ، فعليه ان يقرأ الكتاب الذى الفه موريس زانكان ، واسمه آسيا والغرب ، وقد نشر فى سنة ١٩٥١ ، وفى هذا الكتاب سيجد تحليلا دقيقا جدا للعلاقات بين آسيا الجنوبية الشرقية واوربا وأمريكا ، فى تلك الفترة ، وهو يكشف ، فى القسم المخصص لبورما ، كيف ان الفلاحين كانت تستغرقهم الديون وكيف ان مقرضى الأموال فى المدن أخذوا الأرض ، وفى المناطق المزروعة أرزا ، فى بورما السفلى فى عام ١٨٧٠ ، كان يعيش ٥٤٠ ألف فلاح ممن يملكون أراضيهم ، و٣٥ الف فلاح فقط كانوا يستأجرون الأرض ، ومن ثم فقد كانت الأرض ، فى الواقع ، فى أيدى الزراع ، ولم يكن هناك عمال فى حقيقة الأمر ، وفى سنة ١٩٣١ صار ١٫٥٠٠٫٠٠٠ فلاح لايملكون أرضا ، وفى سنة ١٩٣٧ ، بعد ان بلغت الأزمة الاقتصادية اسوأ حالها . كان هناك ٦٠ فى المائة من حقول الأرز يملكها أناس ممن لم يكونوا فلاحين وممن انفقوا ثرواتهم الجديدة فى المدن .

ويروى زانكان كيف كان القانون الأوربى يعمل بطريقة مجردة مدمرة ، ففى المنازعات الخاصة بالايجار والرهون كان القضاة البريطانيون لا يلتفتون الا الى نص العقد ..

ومن الناحية النظرية ، فان هذا مفهوم نبيل سام للقانون ولكنه كان وحشيا فى آثاره ، لأن العقود كانت تكتب فى حالة الضرورة القصوى ، ولم يكن فى استطاعة الفلاح ان يقرأ ما هى التزاماته ، اما القوانين الخاصة بحماية الفلاحين فقد وضعت

قبل الاحتلال اليـــاباني وهي قانون الايجارات لســـنة ١٩٣٩ ، وقانون تحويل ملكية الأرض لسنة ١٩٤١ .

ان التغيرات في النظام الاقتصادي والاجتماعي للفــلاح ، في آسيا الجنوبية الشرقية فيما بين عام ١٩١٩ و١٩٤١ ، تعد ظاهرة تاريخية جديدة تماما ، وكانت نتيجتــها كذلك ، أن الفــلاح الاسيوي اليوم يختلف جوهريا عما كان عليه في الأيام الســابقة انه ثوري ، وسوف تنتهي ثورته عندما يحصل على نصــيبه المناسب فيما يكسبه من الارض بالكد المتواصل ، كما كان حال فلاح الغرب .

كانت ثورة الفلاحين بزعامة سايســـان عاصـــفة كالأزمة الاقتصادية ذاتها ، فقد انتشرت في عام ١٩٤٠ و١٩٣١ ، من اقليم ثاراوادي في بورما الســفلي ، وبدا من مظاهرها ومن تقـــارير الصحف الأوربية انها لم تكن سوى حركة هستيرية ..

وكان سايسان راهبا بوذيا، اسمى نفسه ملك بورما، وحرض مواطنيه على مهاجمة البريطانيين (الكفرة) ،.وكانت الطوالع قد اعلنت سقوط الاستبداد البريطاني ، وراح الفــلاحون في كل مكان يهاجمون بأسلحتهم البدائية مواقع البريطانيين الرشــاشة وبطبيعة الحال فشلت الثورة وماتت ولكن التقارير الرسميــة البريطانية سلمت واعترفت بأن لها اساسا اقتصاديا ، كما كان الحال في حركة الاضطرابات المتكررة المعادية للهنود في رانجون.

ولم تتأثر البورجوازية البورمية بثورة سايسان ، ومع هذا فانها في مؤتمر المائدة المستديرة في لندن ، عام ١٩٣١ ، احتجت على رفض مطلب بورما الخاص بمنحها وضع الرمنيون ، بسبب الحالة الاجتماعية والاقتصادية العصيبة في البلاد .

((اننا مع الأسف تحت حكم لا يهمه سوى رفاهية ومصالح حفنة قليلة من الرأسماليين .. ان الاستقلال ، عن طريق هـــذا الحكم ، قد قضى على اقتصادياتنا كلها وعلى جهود شعبنا ، ان

عدم اكتراث الحكومة الحاضرة بالفقر المتزايد الذى تعانيه الجمهرة الكبيرة من الشعب ، وتشجيع الراسماليين الأجانب على حساب مواطنينا ، قد سبب الاضطراب الحالى والثورة فى بلادنا)) .

وفى سنة ١٩٢٤ و ١٩٣٥ برز الحزب الاشتراكى ((دابوما ايسيون)) (نحن البورميين) وكان يسمى عادة حزب التاكين ، وتاكين لقب يحمله عدد كبير من زعماء الحزب ، نقول ان الحزب برز الى المقدمة كعنصر فعال فى الحركة الوطنية ، وكان اعضاؤه طلبة توريين ومثقفين من جامعة رانجون ، واكثرهم ماركسيون تملؤهم الرغبة فى التحرر من الراسمالية ، فى اللحظة التى يطرد فيها الاستعمار ، وهم لا يرغبون فى أن تصير بورما (دومنيون) بل ان تكون مستقلة استقلالا تاما وكانت حركتهم الثورية بين الطلاب والعمال والفلاحين سببا فى توسيع قاعدة الحركة الاستقلالية ، وظهرت علامة المطرقة والمنجل فى عدة قرى .

وكان الحزب يضم الاشتراكيين والشيوعيين معا ، وكان نشاطه المناهض للبريطانيين ، وحرب العصابات التى قام بها ضد اليابانيين فى خلال الحرب بمثابة (الاسمنت) الذى ابقى على الفريقين معا . وكان حزب التاكين الاشتراكى يضم اونج سان (واسم شهرته بوجوبوك بوه تيزا ، وقد ولد فى ١٩١٥ وقتل فى ١٩٤٧) وكانوا يطلقون عليه اسم ((تيتو بورما)) بسبب الدور الذى لعبه فى حرب العصابات (١٩٤٣ - ١٩٤٥) ، ثم جاء تاكين فو (المولود سنة ١٩٠٧) وهو كاتب ، ويذكر بطريقته فى التفكير ومزاجه الفنى ، بشاهرير ، أما الثالث فكان تاكين مايا (المولود فى ١٨٩٥ ، وقد قتل فى ١٩٤٧) ، وهو داعية اشتراكى قدير بين الفلاحين ، وكان زعيما لاتحاد زراع بورما ، وهومنظمة الفلاحين التى انشئت فى سنوات الأزمة ، وهى تماثل (كيزان سابهاس) فى الهند وباكستان ، وكان هؤلاء الثلاثة سكرتيرى لحزب تاكين .

وكان (التاكيون) الشيوعيون ، من ذوى الشهرة ، هم سو وتاتون (المولودان فى سنة ١٩١١) وهما عضوان ذكيان من اعضاء الحزب الشيوعى ، وتاين بى (المولود فى ١٩١٦) وهو مفكر متحرر ، وكاتب روائى وصحفى ، وجاء جميعهم من جامعة رانجون .

وكانوا يشغلون اصلا مناصب فى حزب تاكين ، تقل مرتبة من مناصب رفاقهم الاشتراكيين ، ولكنهم فى الأيام العصيبة ، من عام ١٩٤٠ وما بعده ، أثبتوا ـ بوصفهممكافحين فى حركة المقاومة ووزراء ـ انهم ثوريون صادقون كما أثبتوا جدارتهم لتولى مناصب رسمية فى الحكومة .

وبالرغم من أن الصلة بين الحركة الوطنية فى بورما والحركة الوطنية فى الهند البريطانية لم تكن وثيقة جدا . وان المهاجرين الهنود لم يكونوا محبوبين ، فان الوطنيين البورجوازيين وحزب تاكين كافحوا كفاحا عنيفا ضد المشروع الذى يرمى الى فصل بورما عن الهند البرطانية، وكانوا يخشون من أن يعزلوا عن ضركة الحرية عبر الحدود ، ومع هذا ، فانه بفضل قانون حكومة بورما لسنة ١٩٣٥ (فصلتهما لندن بالفعل ، وبدلا من أن تصبح بورما مقاطعة فى الهند البريطانية ، صارت احدى مستعمرات التاج ، وفى الوقت نفسه سمح البريطانيون للبلاد بقدر من الحرية يماثل ماظفرت به الهند ، بالرغم من القيود التى لا تنكر ، والتى فرضت على الاستقلال ، فان هذا الاجراء يعد بمثابة مرحلة متقدمة بالقياس الى ما حصلت عليه بلاد اخرى مثل أندونيسيا او الهند الصينية أو الملايو .

وكان معنى النظام الجديد اقامة حكم ذاتى فى بورما السفلى (وكانت تشمل ٦٠ فى المائة من أراضى البلاد وتضم ٦٠ فى المائة من عدد سكانها) باستثناء الشئون المالية والدفاع الوطنى ، وبالإضافة الى هذا ، كان للمحاكم حق النقض (الفيتو) فيما

يتعلق بحماية مصالح التاج ، وكانت المناطق الشمالية الجبليــة - حيث تعيش شعوب غير بورمية مثل الكارين (٠٠٠ر٥٠٠ر١) والشانز (٠٠٠ر٠٠٠ر١) والصينيين وغيرهم ، فقد كانت تعد مناطق خارجية ، لها حاكم ، ولكنها كانت فى الواقع تحكم مباشرة من لندن •

وكنتيجة لهذا الاستقلال المنقوص ، فى فترة بدا فيهـا العالم وكأنه مخزن بارود جبار ، جاهدت بورما جهادا شاقا لتحصــل على الاستقلال التام ، وألحت الحكومة الوطنية ، وكان أول رئيس لوزرائها هو باماو (١٩٣٧) - فى أن يكون لها جيشها الخاص ، كما طالبت بالحد من الهجرة من الهند ، وفــوق هــذا ، طالبت بتعيين البورميين فى مناصب الحكومة وفى المناصب الاقتصادية الكبرى •

وفى أوائل ديسمبر سنة ١٩٣٨ . عندما احتل اليــابانيون الميناء الذى لم يكن قد احتل من الصين (كانتون ، اكتوبر ١٩٣٨) وكانوا يهددون الهند الصينية الفرنسية ، صــارت الحـــركة الاستقلالية فىبورما أشد عنفا، فقدأمر يوسو بمقاطعة البريطانيين وأعلن الحاكم حالة الطوارىء ، وهو يأمل وقف الثورة المتزايدة، وفى سنة ١٩٣٩ تم الاتفــاق السرى بين الحكومة اليــــابانية والوطنيين البورميين ، أى باماو والأغلبيـــــة الكبرى من حزب تاكين . وكان قد توحد فى الحزب الثورة الوطنى ، أما ما تعنيــه هذه الوثيقة فواضح من الفقرة المتعلقة (باستقلال جيش بورما)

وفى سنة ١٩٤٠ غزت القوا تاليابانية الهند الصينية واحتل الألمان أوربا الغربية ، واحتج باماو وأعضاء حزب تاكين عــــلى الاشتراك فى الدفاع البريطانى ، فى جنوب شرقى آسيا ، وبطبيعة الحال اعتقلوا ، وزادت كراهيتهم للبريطانيين فى السجن ،ولكنهم بالاضافة الى هذا ، قراوا هناك الكتب البريطانية التى الفهـــا

كتاب من جناح اليسار .. ان تطبيقات الديمقراطية البريطانية واحدة ، وقد تأكدت لديهم أفكارهم الماركسية وتعززت .

وفر اونج سان وثلاثون آخرون الى اليابان ، عن طريق الصين ، وعادوا فى سنة ١٩٤٢ ضباطا فى جيش تحرير بورما وزعماء للغزو .

وعندما ذهب يوسو الى لندن فى سنة ١٩٤١ ، حيث التمس من تشرشل ـ دون جدوى ـ ان يجعل بورما بلدامن بلادالدمنيون البريطانى ، كان جنرالات طوكيو قد رسموا بالفعل السهام الحمراء الخاصة ببورما على خرائطهم ، وقد اعتقل يوسو ـ وهو فى طريق عودته ـ فى فلسطين بتهمة ارتكاب اعمال الخيانة ، وفى اثناء الحرب ، ابقى فى السجن فى كينيا ، وفى سنة ١٩٤٢ طلعت الشمس المشرقة ، من الشرق ، على جبال بورما ، وفى الصيف جلا الحلفاء عن البلاد ، واحتل اليابانيون بورما ، وفى القسم التالى من هذا الكتاب سنرى ماذا حدث بعد ذلك ●

الجـزء الخامس

« العاصـفة »

يصدر الخميس ١١ يونية سنة ١٩٦٤

كتب صدرت عن سلسلة كتاب التحرير السياسى

(١) سقوط الامبراطورية

تاليف ادريس كوكس

ترجمة : محمد رشاد حميس

(٢) آســيا المعاصرة

الجزء الأول : يقظة العملاق

تاليف البروفسور رومين

ترجمــة : يوسف صبرى ـ عاطف الغمرى

الجزء الثانى أفول الغرب

تأليف البروفسور رومين

ترجمة : أحمـــد عــادل

الجزء الثالث الفعل ورد الفعل

تاليف البروفسور رومين

ترجمة : سامى حسن سرى

يطلب من دار التحرير للطبع والنشر ـ القاهرة

كتب قادمة

الرأسمالية
أمس واليوم

أرض الخطايا
فى جنوب افريقيا

تجربة الثورة
فى الجزائر

الصين الجديدة

ثورة غينيا
والتقدم الاجتماعى

كفاح السود
ضد التفرقة فى أمريكا

رياح الثورة
فى أمريكا الجنوبية

تطور الفكرة الاشتراكية

القاموس السياسى

الثمن ١٠ قروش وخمسة قروش لقراء الجمهورية والمس

مطابع شركة الاعلانات الشرقية